

مقدمه

علم النفس الاجتماعي

تجلید کتب
صالح الدقر

301.1:Sal3iA

C.2

• سعيد ، محمد مظهر •

• علم النفس الاجتماعي •

301.1
Sal3iA
C.2

علم النفس الاجتماعي

من الاسلام والعالم الحديث

محمد منظر سعيد

مفتش العلوم الفلسفية بوزارة المعارف

وأستاذ علم النفس الاجتماعي بكلية أصول الدين

بالجامعة الأزهرية

وسابقاً أستاذ علم النفس بمعهد التربية العالي بالقاهرة

والخبير الفني لوزارة المعارف العراقية

وعميد المعلمين العالمية ببغداد

68105

الطبعة الثانية — سنة ١٩٤٥

ملزم النشر
مكتبة نخبة مهتر بالفخالة

تليفون : ٥٠٨٢٧

Gift - Dr. Kulsani
Cat. Oct. 1998

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام المرين ، ومعلم المعلمين .
(وبعد) : فهذه عشرون عاماً قضيتها في علم النفس ، متعلماً ومعلماً ،
دارساً ومدرساً ، باحثاً ومنقياً ، كاتباً ومؤلفاً ، كنت فيها مندجاً في زمرة
علماء الغرب ، الذين وضعوا أسس علم النفس الحديث ، متأثراً خطاهم ،
مصطنعاً أساليبهم ، ناهجاً منهجهم ، وما على وقد تلقيت عنهم هذا العلم .
وكنت أرجع إليهم وأكتب بلغتهم ، وأنشر نظريات الجديدة في مجامعهم
فيتناولونها في مجلاتهم ومؤلفاتهم ، ويناقشونها في مؤتمراتهم . وعلى هذا
النحو نشأت ، وحاولت أن أنشئ طلابي في معاهد التربية والمعلمين .
ثم شاء حسن الطالع أن تظهر كليات الجامعة الأزهرية ، وأن أقوم
بتدريس هذا العلم في كلية أصول الدين من يوم أن فتحت أبوابها لطلاب
علوم الدين ، وأن يكون لي نصيب في وضع مناهجها ، وتعديل برامجها
وكتابة مذكراتها ، فكان طبيعياً أن أتصل بالثقافة الإسلامية وأن أحاول
ما استطعت أن أقرب بينها وبين هذا العلم الحديث ، فكان هذا توجيهاً
جديداً لي أعده من باب التوفيق .

فقد انتهيت منه إلى أمرين : كلاهما جد خطير . أولهما : إن في القرآن
السكريم والحديث الشريف وتاريخ الإسلام وآثار السلف معيناً لا ينضب
للدراستات النفسية ، ومورداً لا ينفد للحقائق النظرية والطرأق العملية .

وثانيهما : أن علم النفس هو أساس دراسة الدين ، وقديماً قال ابن مسكويه
 في تحصيل الخلق الجميل : بمعرفة ماهية النفس وسبب وجودها وغايتها
 وقواها ، وما الذي يبلغها كمالها أو يعوقها عنه . وهذا ماكدوجل زعيم
 المحدثين الغربيين في علم النفس الاجتماعي يقول : « في هذا العصر الذي
 تشبّك فيه مصالح البشرية وتلتقي ، لانجد في مختلف الدراسات والعلوم
 والفنون شيئاً أكبر خطراً ، وأجدر بالدرس من علوم النفس والدين ،
 فهما أكثر العلوم شبيهاً وأقواها اتصالاً ، وفيهما مفتاح المسائل التي شغلت
 عقل الإنسان منذ أن وجد . من أنا ؟ وماذا يجب أن أعمل ؟ وفيم أوّمل ؟
 فإذا فهم الإنسان دينه في ضوء علم النفس أمكنه أن ينقذ نفسه من الضلال .
 وأن يعيد بناء الإنسانية التي أوشكت أن تنهار على أساس قويم متين . »
 فاستخرت الله أن أفتح هذا الباب — باب الإسلام ودراساته وثقافته
 لطلاب علم النفس الحديث ، بكتاب هو في صغر حجمه وقلة موضوعاته
 ما كورة نرجو أن تنمو وتنضج حتى تؤتي أكلها بعد حين . وفقنا الله
 إلى السبيل في هذا الطريق ، لنستعين بمعرفة نفوسنا على تفهم ديننا ، إنه
 سميع مجيب .

أول مايو سنة ١٩٤٥

محمد مظهر سعيد

مقدمة الطبعة الثانية

تقبل الطلات والمدرسون والباحثون هذا الكتاب الصغير ، يوم أن ظهر ، بشيء كثير من الرضا والتقدير ، ونفدت الطبعة الأولى بعد ظهورها بقليل ، وكان في خاطري أن أزيد فيه مادة وشرحاً وأمثلة ، وأضمنه بعض الرسوم التوضيحية والجداول ، ولكن ظروف الطباعة ، وقفت حائلاً دون تحقيق هذا الخاطر .

واشتد الطلب وتجدد ، فلم أجد بداً من إعادة طبعه كما هو دون زيادة أو تعديل . وقد تفضل صديقي الأستاذ أحمد محمد إبراهيم صاحب مكتبة ومطبعة نهضة مصر ، وتولى أمر هذه الطبعة الثانية ، فله خالص الشكر ووافر التقدير .

ولعل الأصدقاء والقراء ، في مصر والبلاد الشقيقة العربية ، الذين ألحقوا في الطلب ، يقبلون العذر ، ويقنعون بالقليل المفيد . وفقنا الله جميعاً لخدمة اللغة والعلم والدين .

محمد مظهر سمير

مارس سنة ١٩٤٥

الباب الأول

المقدمة

علم النفس : لكل علم من العلوم ناحية خاصة يتجه اليها وموضوعاً يبحثه وأسلوباً يتبعه في هذا البحث ، فمن العلوم ما يبحث في الكون والعالم المادى كالفلك والجغرافيا والكيمياء . ومنها ما يتناول الإنسان ، من ناحية بدنه كالتشريح ووظائف الأعضاء ومن ناحية تفكيره كالمنطق .

أما علم النفس الانسانى فيبحث العقل — في جميع مراتبه ودرجاته — عقل الطفل والبالغ ، والرجل والمرأة ، والعاقل والمجنون ، والمتوحش والمتمدن ، ويبحث في وظائف العقل وعملياته التى يقوم بها ، من إحساس بالمؤثرات وإدراك للمواقف وتذكر الماضى وتفكير فى المشاكل وفى الحالات التى تكون عليها النفس ، من غضب وخوف ، وفرح وحزن ، وقلق واطمئنان ، ويبحث كذلك فى كافة أنواع السلوك والتصرفات التى يقوم بها الانسان ويكون مصدرها العقل ، فهو يدرس الحياة العقلية جملة ، أى مظاهر حياة الانسان التى تصدر عن العقل .

ولما كان العقل شيئاً مجرداً معنوياً لا مادياً ، لا نستطيع أن نصل إليه مباشرة ، فنلاحظه ونقيسه ونصفه كما نفعل فى الأمور المادية المحسوسة ، كطول الانسان ووزنه وقوة بصره ، فإن طريقنا الوحيد لدراسة العقل ، هو أنواع السلوك والتصرفات التى تصدر عنه ، فعلم النفس الانسانى إذن هو العلم الذى يبحث فى أنواع سلوك الانسان وتصرفاته ، باعتبارها مظهراً

أو أثراً للعقل ، وبعبارة أخرى هو العلم الذى يبحث فى الحياة العقلية للإنسان كما تبدو فى أنواع سلوكه وتصرفاته (١)

الإنسان والحيوان : والإنسان فى الواقع يشترك مع سائر الكائنات الحية فى جميع صفات الحياة العامة ويميزاتها . فهو مثلها يحى وينمو ، ويتغذى ويتناسل ، وتطراً عليه عوامل الصحة والمرض ، ثم يهرم ويضعف ويموت . ويشعر كما تشعر ، بجميع ما يحيط به فى حالة اليقظة ، ويغيب عن شعوره فى حالات النوم والاعغاء والخدر . وليس هو أرهفها حساً ولا أكثرها نشاطاً ولا أقواها بدنأ . فهو فى إحساسه بالمؤثرات قد لا يصل إلى دقة آلات القياس كالترمومتر (مقياس الحرارة) والبارومتر (مقياس الضغط الجوى) ، ولا يصل فى سرعة تصرفاته ودرجة اتقانها إلى ما وصلت إليه الآلات المتحركة كالسيارة والقطار والطائرة ولكن يمتاز عنها جميعاً بأمور عدة ، مصدرها ما أوتى من عقل يمتاز وقدرة على الإدراك والتعليل ، وسرعة التعلم واكتساب المهارة ، واستعداد لتذكر الماضى والانتفاع بالخبرة السابقة ، والخروج بعقله من دائرة الملموس إلى المعقول غير المادى ، ومن حيز الواقع الضيق إلى عالم الخيال الواسع .

الشعور ومظاهره : ثم هو فوق شعوره بما حوله من الأشياء والمواقف يمتاز بشعوره بنفسه وذاته ، فيدرك أنه متكلم أو صامت ، وأنه يأكل ويشرب ويفكر ، ويشعر بما يصدر عن ذاته من حركات مادية كالحركة والكلام ، وأمور عقلية كالذكر والتفكير ، وبما تكون عليه ذاته أو نفسه من حالات نفسية كالفرح والحزن . فتجده فى لحظة ما متذكراً أو متصوراً أو مدركاً أو مفكراً ، أو قائماً بعملية من العمليات الكثيرة التى يدرك بها المواقف ويكتسب المعرفة ، وتراه فى لحظة أخرى متأثراً أو منفعلاً

أو شاعراً بخوف أو غضب ، وفي لحظة ثالثة قائماً بعمل أو منفذاً لفعل اعزمه من قبل ، أو رأى في التو أنه يريد أن يقوم به ، وبالجملة تجده في كل لحظة من لحظات حياته الشعورية مدركاً أو منفعلاً أو نازعاً متصرفاً . وكذلك نجد هذه المظاهر الثلاثة لحياة الانسان الشعورية ، وهي الادراك والوجدان والنزوع مجتمعة في كل عملية عقلية ، كيفما كان نوعها . فالانسان لا يحس ولا يفعل ولا يقوم بعمل إلا اذا كان هناك أمر خارج عنه ، سواء أكان شخصاً أم شيئاً أم موقفاً أم فكرة تطرأ عليه — يستقبله العقل ويتعرف عليه ويدركه ، فيتأثر به ويشعر نحوه بالارتياح والسرور واللذة لوجوده ، أو عدم الارتياح والالام والنفور منه ، فيزع أو على الأقل يشعر بالزعة إلى إبقائه على ما هو عليه لزيادة دراسته وإدراكه من نواح أخرى ، والتمتع به أو بالعكس إبعاده أو القضاء عليه والتخلص منه ليزول عدم ارتياحنا إليه . فالادراك والوجدان والنزوع ليست إذن قوى منفصلة تعمل كل منها في دائرتها مستقلة عن غيرها وإنما هي مظاهر للعملية العقلية الواحدة التي يقوم بها العقل في لحظة ما ، أو هي كما يقول (ستاوت) المظاهر التي يتجلى بها الشعور أو الطرق التي بمقتضاها يرتبط العقل بموضوع أو يتأثر بمؤثر أو موقف خاص . وليست هي أيضاً بخطوات متتابعة تؤدي كل منها إلى التي تليها وتختفي بمجرد ظهورها ، كأن يحدث الادراك أولاً ، ويختفي بظهور الوجدان ، وهذا بدوره يخفي الطريق للنزوع ، وإنما هي تحدث معاً ، فهي كضلاع المثلث ، يتعين وجودها معاً لتكوين وحدة المثلث ، وإن اختلفت أبعادها ونسبها ومقاديرها . أو هي كما يقول (ستاوت) مركبات جزئية لوحدة مميزة قائمة بذاتها . متداخلة تداخلاً كلياً ومرتبطة ارتباطاً تاماً ، بحيث لا يحدث انفعال من غير أن

يشيقه ويصحيه ادراك ، ولا يحدث زوع من غير إدراك ووجدان (٢) .

الاستعدادات الإنسانية :

يرى علماء النفس المحدثون وعلى رأسهم ماكدوجل ، مارآه أفلاطون فيلسوف اليونان الأكبر من قبل ، أن كل تصرفات الإنسان وأعماله الجسمية والعقلية ترمى إلى الوصول لغرض خاص يصلح له ويمكنه من البقاء في معترك الحياة سواء أشعر بالغرض في أثناء التصرف ، أم لم يشعر ، وأن الله لم يمنح الإنسان سائر قواه العقلية عبثاً ، وإنما لحكمة سامية قد لا تدركها بصيرته ، ومن ثم تكون حياته كلها غائبة أو هورمية (٣) .

ولما كانت ظروف الحياة الإنسانية معقدة غاية التعقيد ، وحاجات الناس متعددة ورغباتهم متنوعة ، فإنه يقتضى أن تكون لدى الإنسان طائفة كبيرة من الاستعدادات والقوى التي تمكنه من مجابهة الظروف والتصرف في كل موقف بما يناسبه من بساطة أو تعقيد ، وإن تفوق هذه الاستعدادات والقوى في تحفزها ويقظتها وسرعة عملها ودقتها ونظامها مالمدى كل الكائنات الحية الأخرى من قوى ودوافع ، ولو نظرنا لتصرفات الإنسان وأعماله ودوافعه الثابتة المستقرة ، والمختلفة المتغيرة ، لوجدناها تصدر عن طائفتين كبيرتين من الاستعدادات . أولاهما : الاستعدادات الفطرية التي ركبت في خلقته وطبيعته ، وورثها عن آبائه وأسلافه ، كالبحث عن الطعام ، والهرب من الخطر ، والدفاع عن النفس والتناسل ، وهذه تمتاز بأنها عامة عند جميع أفراد النوع الإنساني ، ثابتة أصيلة في النفس ، لا يتغير جوهرها بتغير الظروف والأحوال وإن تغيرت مظاهرها ، ضرورية لاستمرار الحياة ، فلا يمكن الاستغناء عنها بحال ، أو منعها والوقوف في طريقها .

وطائفة أخرى يكتسبها الإنسان من بيئته التي يعيش فيها بالتعليم أو التلقين ، أو الإرشاد والتقليد ، كالتكلم بلغة ما أو الكتابة والرسم وقيادة السيارة . وهذه تختلف بالضرورة من شخص لآخر ، وقد تختلف عند الشخص الواحد باختلاف ظروفه ، فما يكون ضرورياً منها في وقت ما لا يكون مطلوباً في وقت آخر ، وهي لذلك تقوى بالمران وتضعف بالترك والإهمال . والإستعدادات الموروثة ليست نوعاً واحداً ، وإنما هي أنواع تختلف في قوتها وترتيبها وأثرها في توجيه سلوك الإنسان ، فمن أبسطها الأفعال المنعكسة (٤) وهي الأفعال البسيطة غير الشعورية اللاإرادية التي يقوم بها عضو واحد من أعضاء البدن أو جزء بسيط من عضو واحد ، كإغماض العين عند اقتراب جسم متحرك منها ، واتساع حدقات العين وضيقها لاختلاف مصدر الضوء قوة وضعفاً ، وهذه قد تتم في لحظة من غير أن يتنبه لها السكائن الحى أو يشعر بها إلا عند تمامها ، ولا يستطيع أن يمنعها أو يعدل من أسلوبه أو يتحكم فيها بإرادته . ومن أقواها وأهمها الاستعدادات الغريزية التي تتطلب من السكائن الحى استخدام بدنه كله وعقله للوصول إلى غرض هام ضرورى يدفعه إليه الموقف الذى يجابهه ، كالهرب من الخطر ، والدفاع عن النفس ، والسيطرة على الضعيف والخضوع للقوى .

الباب الثاني

الغرائز

يولد الإنسان مزوداً ببطائفة من الاستعدادات الفطرية الغريزية ، التي تمكنه من التصرف في المواقف التي تطرأ عليه في حياته ، بما يحقق مصلحته ويجعله صالحاً للبقاء دون سابق خبرة أو تعليم ، وهو في أول نشأته يشابه الحيوان في تصرفاته لأن الحيوان يشاركه هذه الغرائز ، ولكنه مع هذا يستفيد من عقله وتجاربه والظروف التي تمر عليه ، فيستطيع أن يعدل من سلوكه الغريزي ويسمو به ويخرج من دائرة الحيوانية إلى دائرة الإنسانية ذات المثل العالية والمبادئ السامية ، في حين يبقى الحيوان على فطرته لأن غرائزه ثابتة وتصرفاته نمطية . أما غرائز الإنسان فمرة وقابلة للتعديل .

وفي هذا يقول قطب الدين الشيرازي : « للنفوس البدنية شئتان : فاعلى ونمائي . أما السبب الفاعلى فهو أن أول نشأة للنفس هي هذه النشأة الطبيعية والبدنية ، ولها الغلبة على النفوس مادامت متصلة بالبدن منصرفة عنه ، فتجرى عليها أحكام الطبيعة البدنية . وكذا إرادة الله تعلقت بإيداع الألم والإحساس به في غرائز الحيوانات ، والخوف في طباعها مما يلحق بذاتها من الآفات العارضة والعاهاات الواردة عليها حثاً لنفوسها على حفظ أبدانها ، وكلاءة أجسامها ، وصيانة هيكلها من الآفات العارضة لها ، إذ الأجساد لا شعور لها في ذاتها ولا قدرة لها على جر منفعة أو دفع مضرة ، فلولا يمكن الألم والخوف في نفوسها لتهاونت النفوس بالأجساد وأسلمتها إلى المهالك ، (٥) .

ويقول ابن سينا : « الإدراك يحدث بعرضه دون شعور ، وذلك بتأثير الحياة الحسية النزوعية كما هو الحال في الحيوان ، وبعضه يحدث من شعور بفعل العقل . وفي الحالة الأولى يظل الإدراك متصلاً بالجزئي ، فالشاة تدرك عداوة الذئب (بفعل الغريزة) ، (٦) .

ويقول ابن ماجه : « الحيوان غير الناطق إنما يتقدم فعله ما يحدث في النفس البهيمية من أفعال ، والإنسان قد يفعل ذلك — كما يهرب من مفزع ومثل ما يكسر عوداً خدشه ، لأنه خدشه فقط . وهذه أمثالها أفعال بهيمية (غريزية) فأما من يكسره لئلا يخدش غيره ، أو عن روية توجب كسره فذلك فعل إنساني . فالفعل البهيمي هو الذي يتقدمه في النفس الانفعال النفساني فقط ، مثل الغضب أو الخوف وما شاكله — أما من يفعل الفعل لأجل الرأي والصواب ، ولا يلتفت إلى ما يحدث في النفس البهيمية ففعله بأن يكون إلهياً أولى من أن يكون إنسانياً ، (٧)

ويذكر الأستاذ الإمام الشيخ المراغي أنواعاً متعددة من هذه الاستعدادات الفطرية الغريزية فيقول : « منح الله سبحانه وتعالى الإنسان أنواعاً من الهداية توصله إلى أغراضه وتمنعه من التوسط في الممالك .

أولها : هداية الإلهام والفطرة ، وهي في الأطفال منذ ولادتهم ، والطفل عند ما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالباً له وإذا أعطى الثدى لقمه . وتليها هداية الحواس والمشاعر . وثالثها هداية العقل ، (٨) .

ويقول : « أودعت في الإنسان غرائز الشهوة ، وغرائز الغضب ، والانتقام ، وهو ميال إلى الإثارة بطبعه ولولا الحدود توضع له لآسرف في استعمال هذه الغرائز وآسرف في الجور ، كذلك هو نزاع إلى المعرفة ، يحاول الكشف عن كل شيء فيما غُيب ، وفيما لا سبيل إلى معرفته من سر

القدر وطريق الخلق وأطواره ، (٩).

وفي موضع آخر : « والأولاد عزيزة على النفس يرى الإنسان فيها مورثه ، ويحتفظ بها كما يحتفظ بنفسه أو أشد ، وبدرك أن بقاءها بقاءه ، وقد جبل الإنسان بل الحيوان على الحرص عليها والضن بها والدفاع عنها وتد يضيع الإنسان حياته دفاعاً عن حياة ولده ، (١٠) .

أمثلة الغرائز : فالإنسان بفطرته يدرك المواقف التي تتعرض فيها ذاته أو ملكه أو أولاده وأقاربه للخطر ، من الحيوان المفترس ، والعدو المفاجئ ، والماء والنار والظلام ، والشئ المجهول ، فيخاف ويجري أو يخشى ، أو يصطنع أية وسيلة من الحرب لينجو من هذا الخطر ويتبعد عنه ، وقد أمر الإنسان بذلك فقال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

ثم هو يغضب ممن يعتدى عليه ويقف في طريق رغبته أو يعطل له مصلحة ، أو يهاجمه في دينه وملكه وعقيدته ، أو يخرج عزته وكرامته ، ويقاتله ليعبده أو يمحو أثره ، حتى لا يكون في استمرار بقاءه خطراً عليه ، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال فقال في كتابه الكريم : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » وقال تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » وقال تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهم وبئس المصير » .

وقال تعالى « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة

ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ، وفي الأحاديث الشريفة : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألستكم ، ثلاث لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » ، ضمن الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد في سبيله وإيمان به وتصديق لرسوله ، أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو نتيجة .

ويقول الإمام المراغي : « أن الإسلام يريد رجلاً عاملاً في الحياة ، مهذب الأخلاق ، طاهر الأعراق ، قوياً لا يهاب الموت ، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن ويذود عن العشيرة » ، ١١

وفي موضع آخر : الجهاد في سبيل الله معناه الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، وإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين إعلاء للحق ، فكأن المسلم ندب من الله لنصر الحق وإعزازه والضرب على أيدي البغاة لتطهير الأرض من الفساد منزلة وضع بها في الدرجة العليا للكرامة ، فعليه أن يعد نفسه لها ، وقد جعل الله أجر الجهاد عظيماً ، وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه (١٢).

ومن طبيعة الإنسان أن يخضع لمن هو أقوى منه بدنًا أو عقلاً ، أو أقدر فناً ، أو أغزر علماً ، أو أصلح خلقاً وديناً ، ولذلك يخضع لأوامر أبيه وولي أمره ، وأستاذه ومربيه ، ثم لرؤسائه وحكامه وأئمة دينه ، وقادة الرأي وزعماء أمته ، وقد طلب الله تعالى طاعته وطاعة رسوله ، وسن أن حياة العباد ونظام المجتمع في هذه الطاعة فقال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وقال تعالى في طاعة الوالدين : « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما » وقيل في طاعة العلم : « من علمني حرفاً صرت له عبداً » .

« ثم هو ميال بطبعه إلى السيطرة على من أضعف منه والتسلط عليه بالقول والعمل إلى حد الاستعباد والإملاء وفرض الرأي ، وفي هذا يقول الإمام المراغي : « الذي يجعل لنفسه حق التقدم على أحد يجعل لنفسه حق إبداء الرأي والسبق به حق المخالفة » (١٣)

والإنسان مولع باستطلاع الشيء الغامض واكتشاف المجهول وتعرف الغريب ، ولولا هذه النزعة ما استطاع أن يكسب الخبرة والمعرفة ويضع النظريات والقوانين ، ويتقدم في العلم ، ولما وصلت الإنسانية إلى ما وصلت إليه الآن من مدنية وثقافة ، والقرآن الكريم يحث الناس على التدبر في آيات الله والتأمل في خلقه ، ودراسة الكون وظواهره ، والأمم وتاريخها وأحوالها .

والاستطلاع عند ابن سينا وابن خلدون هو أساس رقي الإنسان وتعليمه ، وابن ماجه يطالب الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه . وقديماً قال سقراط شيخ الحكماء : « اعرف نفسك بنفسك » ، والرازي يقول : « من عرف نفسه قد عرف ربه » ، وقد جعل ابن طفيل حتى بن يقطان يصل بحسه ومشاهداته وتأمله واستطلاعاه إلى حقائق الكون وفلسفته دون أن يتعلم ذلك من أحد .

والإنسان مدني بطبعه ، دؤب على الاتصال بأبناء جنسه ، يجد الأانس في اختلاطه بهم والوحشة في الابتعاد عنهم ، وبيتغي أمور معاشه ومعاذه في التعاون معهم ويكتسب خبرته وثقته من الاحتكاك بهم . والله تعالى يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

ويقول الإمام المراغي : « الإنسان كأن يختلف عن غيره أشده

الاختلاف ، فهو كثير الحاجات متنوع الرغبات ، بعيد الأمل كثير الطموح محتاج لغيره فيما يقوم البدن ويستره ويرفه عيشه . وفيما يصلح نفسه من العلم والتهذيب ، لا تقف رغباته عند حد ، ولا يستقر على حال ، ويحتاج إلى غيره في حماية نفسه من العاديات ، فلا يمكن أن يعتبر الفرد وحدة منفصلة عن الجماعة ، بل يجب أن يعتبر جزءاً من وحدة ومتممها لها ، فلا بد أن يتبادل مع أجزاء الوحدة ما يحفظ هذه الوحدة سليمة ، ويعود عليها بالخير والبركة ، بهذا كان مطالباً بأن يقدم للوحدة نفسه وماله وكل ما وهبه الله إياه من علم وعقل وتهذيب ، (١٤)

وهذه النزعة كما يقول مكدوجل : « هي الأساس الذي يقوم عليه الجماعة البشرية في جدها ولها و عملها ووقت فراغها وسائر نواحي إنتاجها » ١٥ وقد أشار العالم وليم جيمس وغيره من علماء النفس إلى أثر الوحدة السبي في النفس والجهاز العصبي ، ومبلغ شدة الحبس الانفرادي كوسيلة من وسائل التأديب ، لا عند الإنسان فحسب وإنما كذلك عند الحيوان ، وقد لاحظ جالتون أن بعض الحيوانات ، كالثيران يموت الواحد منها وتختل أعصابه إذا فصل عن القطيع (١٦)

وحب الصغار من الأطفال والحيوان والنبات طبيعي في نفس الآباء مما تضرب به الأمثال ، فقد ورد في أمثال الميداني « أن رجلاً تزوج امرأة وله أم عجوز ، فقالت المرأة للزوج — لا أنا ولا أنت حتى تخرج هذه العجوز منا ، فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلاً حتى أتى وادياً كثير السباع فرمى بها ، ثم تنكر لها فربها وهي تبكي فقال — ما يبكيك يا عجوز — قالت — طرحتني إبنى هاهنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد — فقال لها — تبكين له وقد فعل بك ما فعل ، هلا تدعى عليه — قالت وأرسلته

مثلاً — تأبى له ذلك بنات البين — أى عروق قلبي .

والانسان ينفر بطبعه من المناظر والطعوم والروائح الكريهة المنفرة
ويبتقرز لرؤيتها ويشمئز منها ، فيندفع للابتعاد عنها ونبذها .

والشهوة التى تصاحب الغريزة الجنسية من أقوى الأمور التى تملك
قياد الانسان ، وقد قال الله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء
والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة .

هذه وغيرها من أنواع السلوك الغريزى هى الأساس الذى تقوم عليه
حياة الانسان الفطرية ، فلا عجب إن اعتبر العلماء الغرائز أهم مصادر السلوك
الإنسانى جملة فتجد ستئلى هول يقول إن جميع أعمال الإنسان وأخلاقه
تسير نحو غرض معين ، وجميع مصادر النزعات والرغبات وتصرف
الإنسان على وجه العموم نجدها متأصلة فى الغرائز ، وهى مرشد الإنسان
الذى لا يخطئ . لأنها حفظت الفرد والنوع والطبيعة ورثتها الانسان لأنها
وجدت بالتجربة وبالاتخاب الطبيعى إنها خير ماتورثة إياه (١٧) .

ويقول ماك دو جل « إن الغرائز هى المصدر الوحيد المهم لكافة أنواع
التصرفات الانسانية وبغيرها لا يمكن بقاء النوع ، فضلاً عن رقيه وتدينه ،
انزع هذه الغرائز من الانسان يصبح كالساعة التى ينزع منها زبركها ، أو
كالآلة التى يفصل عنها محركها » (١٨) .

وفى موضع آخر « هى الأساس الذى تبنى عليه أخلاق الأفراد والأمم
ويميزاتهم وإرادتهم تحت إشراف العقل (١٩) .

ويقول ستارش : « هى القوى المحركة الديناميكية التى تقرر أعمالنا وتحدد
رغباتنا وهى كذلك ناحية التربية تهىء الدوافع للعمل والحفظ ووسائله » .

تعريف الغريزة : هناك أنواع أخرى من الاستعدادات الفطرية
كالغريزة ، ولكن الغريزة تمتاز عنها كلها بأنها ميل أو استعداد فطرى عام

عند جميع الكائنات الحية وبخاصة الإنسان - بدنى فيزيقي لأنها تستخدم كل أعضاء البدن وأجهزته - عقلي أو سيكولوجي أو نفساني لأنها تتطلب استخدام العقل والشعور - يجعل الكائن مهتماً بطبعه لإدراك مواقف ومثيرات معينة ، فيدركها ، فيشعر بانفعال نفسياني خاص أو تتملكه حالة وجدانية معينة ، فيندفع فوراً لنوع من التصرف ويسلك مسلكاً خاصاً أى ينزع لقيام بعمل خاص ، أو على الأقل يشعر فى نفسه بوجود الدافع وإن لم يتم النزوع والتصرف بالفعل (٢١) . ففيها مظاهر الشعور الثلاثة من إدراك ووجدان ونزوع ؛ فالإدراك يثيرها ، والوجدان أو الإنفعال هو الذى يميزها عن غيرها ، والنزوع هو مصدر القوة الدافعة التى تنجم عنها الأفعال والحركات الغريزية .

ومن مميزات الهامة :

- ١ - إنها تلقائية ، فبمجرد وجود الغرائز المثيرة يندفع الإنسان إلى التصرف من تلقاء نفسه
- ٢ - إنها لحوجة مباشرة دائمة .
- فاذا لم تصل الغريزة إلى غرضها استمرت تله وتطلب الاشباع وتجدد نشاطها حتى تصل إلى الغرض حتى بعد زوال المؤثر الأصيل ، كما يحدث عند وجود العقبات والموانع أو قيام غريزة أخرى أو عند الاعيا .
- ٣ - إنها تمتنع بمجرد الاشباع بالوصول إلى الغرض .
- ٤ - تغيير طريقة التصرف إذا فشلت الطريقة الأولى .
- ٥ - القابلية للتعديل والتحسين بالتكرار والمراة .
- ٦ - التوقع والتطاع للمؤثرات التى تثيرها . فتبرز وتخرج من حالتها السلمية ، وإلا ظلت كامنة سلبية ، أى أنها موجودة بالقوة وتظهر بالفعل .

٧ — أنها غائية أو لها غرض تسعى إليه :
آثار الغرائز في سلوك الفرد والجماعة :

لو تعمق الإنسان في دراسة آثار الغرائز ، ونظر إلى أبعد من المواقف الغريزية الطارئة ، والتصرفات المؤقتة . لوجد لسلك غريزة أثرأ هاماً في سلوك الفرد والجماعة ، فالخوف المعقول أساس الدين والتقاليد والتشريع والقانون والنظم الاقتصادية والغضب الطبيعي أساس الوطنية والكرامة والدفاع عن المبادئ السامية ، والتسلط والخضوع أساس الحكم والنظم الاجتماعية والطاعة والاحترام والنفور يكون الذوق السليم ، والتقدم في أساليب المعيشة والاستطلاع قوام العلم والمعرفة ، وغير ذلك مما سنفصله فيما بعد تفصيلاً . فهي من هذه الناحية خير للفرد والجماعة ولكنها قد تتطرف لظروف طارئة ، فتخرج عن حدها الطبيعي وتنقلب شراً على الفرد والمتطرف ذاته وعلى الجماعة ، فالسيطرة طبيعية لمن تتوافر فيه القوة أو العلم أو النواحي التي يمتاز بها عن غيره ، ولكن تطرفها يجعلها استبداداً بمقوتاً أو غروراً مردولاً ، وفي ذلك يقول الله تعالى : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبراً كبيراً) وفي الأحاديث الشريفة : (لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من كبرياء) (ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه) (لينتهين قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان) ويقول الامام المراغي : (النسب غير مكتسب للانسان ، وليس للانسان إلا ما سعى ، فليس له شأن يعول عليه ويكون مداراً للفخر ، والتقوى هي المكتسبة وهي التي تجرى المقاييس عقد الله تعالى ، فإذا جاز الفخر بشيء ، فإن أحق شيء بالفخر هو التقوى فانفروا بها) (٢٢) .

والقتال طبعي ولكن من الشر أن يقاتل الإنسان من لم يعتدى عليه ، وقد أقر الشرع مبدأ (العين بالعين والسن بالسن - والشر بالشر والبادي أظلم) ومع هذا أشار بالعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس . وقال تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) ونهى عن قتل البنات والأطفال : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) وندد بالوآد أشد تنديد (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) وفي هذا يقول الإمام : (أن شركاءهم زينوا قتل أولادهم اتقاء للعار في البنات وخوف الفقر في البنين والبنات ، ففسدت فطرتهم ، وفقدوا عاطفة الرحمة في قلوبهم) (٢٣) .

ونهى الدين كذلك من التحرش بالناس بدون سبب ، وقتال المسلمين بعضهم لبعض ، فالؤمنون (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وفي الحديث الشريف : (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) فالؤمن كما يقول الإمام المراغي : (طاهر القلب طاهر الجوارح عفا اللسان عفا العين واليد ، وديع سمع ، مطيع لله ولرسوله ، لكنه متى دعا الداعي وحانت ساعة التضحية فإذا ذلك يكون أخا الجلاد أخا الحرب والطعن والضرب ، فهو رجل فيه صفات الرجل الكاملة ، وهو ملك فيه صفات الملائكة) (٢٤) والاستطلاع إذا تطرف صار تجسساً عمقوتاً على الناس ، وكشفاً لما يجب أن يستر من أحوالهم وأمورهم . وفي هذا يقول الأستاذ المراغي : (نهى الله عن ظن السوء . ونهى عن التجسس وتتبع عورات المسلمين . ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته . ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى

في الدنيا والآخرة) وقال عليه السلام لمعاوية : « إنك إن تتبععت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » وقال أبو بكر : (لو رأيت أحداً على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ولا دعوت إليه أحد حتى يكون معي غيري) وقال الرسول : (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله في قعر بيته) (٢٥).

تعديل الغرائز :

تسكاد الغريزة تكون ثابتة نمطية عند الحيوان والنحل يجمع العسل ويبنى خلاياه وأقراصه ، والعناكب تنسج خيوطها ، والطير يبنى عشه . على نمط ثابت لا يتغير من قديم الزمان . ولذا تكون غريزة الحيوان في كثير من الأحيان عمياء — كما يقال — الى حد أنها قد تضر به ضرراً بليغاً ولكن الإنسان كما يقول ديمقيل : (يعيش في بيئة دائمة التغير ، فلا بد أن تكون غرائزه مرنة مرونة تجعلها مطابقة لمقتضيات الاحوال ، متمشية مع ظروفه وخبرته ونمو عقله) (٢٦).

فغريزته ليست ثابتة ولا عمياء كغرائز الحيوان ، ولولا مرونة غرائزه وقابليتها للتعديل لما استطاع أن يرقى ويسمو ويصبح سيد الكائنات . ويرى ماك دوجل : إن المظهرين الإدراكي والسنووي للغريزة هما القابلان للتعديل .

فالمظهر الإدراكي يتغير بأن يرتبط المشير الطبيعي للغريزة بمؤثر آخر غير طبيعي . فالطيور التي تسكن جزيرة منقطعة لم تطأها قدم الإنسان لا تفرح عند رؤيته لأول مرة ولسكنها بعد أن يأخذ في صيدها ببندقية ذات الصوت المزعج لا تلبث أن تطير وتهرب كلما اقترب منها . وكذلك الأشياء

التي تشابه المثير الطبيعي قد تشير الغريزة كالمشير الطبيعي تماماً ، فالحصان يحفل ويخاف إذا رأى ثوباً ملقاً في الطريق ، لأنه يشبهه الحيوان المفترس الراض (٢٧) .

ويتعدل الإدراك عن طريقة التجربة واستمرار الموقف الجديد ، فالنسر دائماً تتبع الجيوش في الحروب القديمة لأنها عرفت بالتجربة أن وجود الجيش معناه وجود جثث القتلى ، فبالتجربة أصبح هذا المؤثر غير الطبيعي مثيراً لغريزة البحث عن الطعام ، وكذلك تتبع الطيور آكلة الديدان الفلاح عند ما يحترث أرضه (٢٨) .

ومن الناحية النزوعية تتغير الحركات البدنية التي تصاحب الفعل الغريزي ، فالطفل يقاتل أول الأمر بيديه وأسنانه ورجله وكل أعضاء بدنه ، فإذا كبر يلاكم أو يصارع أو يستعمل أداة للقتال ، وقد يرتق أسلوب التصرف ، فالطفل الصغير يركل الباب برجله إذا عجز عن فتحه ، فإذا كبر بحث عن أداة يفتحه بها وبالخبرة والتعلم يستطيع الإنسان أن يفرق بين نتيجة الفعل الغريزي والوسيلة التي توصل إلى هذه النتيجة ، في حين أن السكب مثلاً وقد عاش في بيئة الإنسان المتحضرة مدة طويلة لا يزال يحفر غطاء الأرض من سجاد أو بساط برجليه كما يفعل السكب المتوحش أو الرقيق للبحث عن أجحار الحيوانات ، ولا نكون مغالين إن قلنا الجزء النزوعي في غرائز الإنسان قلما يبقى على حاله الفطرية التي نجدها عند الحيوان والطفل والإنسان المتوحش .

أما الشطر الوجداني للغريزة فأساسه النفساني وهو الشعور الداخلي بالغضب أو الخوف مثلاً يبقى دائماً ثابتاً في طبيعة الإنسان لا يتغير ولا يتبدل ، والذي يتغير هو التغير الخارجي الذي يظهر في ملامح الوجه مثلاً

فالمظهر الخارجى للغضب ، من احمرار الوجه ، والقبض على الأسنان ، ونظرات التشفى والانتقام ، كما يقول العالمان : « لعداى وجرين » . يمكن أن تخفى عند الرجل العاقل الذى يستطيع كظم غيظه وضبط نفسه ، فى حين أن الشعور الداخلى بالغضب لايزال يتملكه (٢٩) .

ويلاحظ العالمان : « أوكدن وستورت » ، إن بعض الشعوب كالصينيين والهنود الممر تحتم عليهم تقاليدهم الاجتماعية ضبط النفس وعدم إظهار أى تعبير خارجى عن الانفعال ، بعكس الفقراء والسذج الذين لا يتقيدون بهذه التقاليد (٣٠) .

فى التربية والتعليم : جرت أساليب التربية والتعاليم القديمة ، على اعتبار الغرائز شريرة ومفسدة وغير منتجة ، لأنها كثيراً ما تدفع بالطفل ، بل البالغ إلى القيام بأعمال تخالف ما اتفق عليه العرف والأدب والذوق السليم ، وتضر بمصلحته ومصلحة الآخرين والكثير من الآباء والمربين يرون الهنات الهيئات والهفوات البسيطة والغلطات البريئة التى تبدو من الأطفال عندما يندفعون بغرائزهم فى عمل ما ، قد تصبح عادة سيئة ، يصعب فيما بعد اقتلاعها إذا ما تكررت ، وهم بذلك ينادون بضرورة أخذ الأطفال ومن هم فى حكم الأطفال من الدهماء والسذج والأميين والريفيين بالشدّة والحزم وإحاطتهم بسياسج منى من الأوامر والنواهى والقوانين والنظم القاسية ويشيرون باستخدام وسائل الإرهاب والتخويف والعقاب البدنى الشديد كوسيلة للتربية الناجعة والتهديب الصحيح . فترى من الأقوال المأثورة عن زعماء التربية فى القرن الماضى أمثال سبنسر الانجليزى وغيره (اقصد فى استعمال العصى تفسد الطفل وليس من الممكن تربية الطفل الذى لا يعرف الخوف) حتى ثورندايك عالم النفس الأمريكى يقول : أن الهفوات البسيطة التى

يرتكبها الأطفال حتى في ألعابهم والعيوب الخلقية التي تبدو في تصرفاتهم هي مقدمات أو دلائل قاطعة على حياة هؤلاء الأطفال في المستقبل فالطفل الذي يكذب مرة واحدة وهو صغير ولا يعاقب على هذه الكذبة عقاباً شديداً قد ينشأ كذاباً محترفاً أو شاهد زور أو مزوراً ، على أنه إذا صادفه شيء من الحظ قد يصبح سياسياً أو كاتباً روائياً ، وهم إلى حد ما يدينون بفلسفة المتشائمين التي ترى أن الإنسان شرير بطبعه ، وإذا لم تقتلع من نفسه بذور الشر في مبدأ نموها ، فلا يمكن أن يحيا في المستقبل حياة صالحة طيبة ولعله يمكن للرد على أصحاب هذه النظرة القاسية الجامدة ، أنه ما من طفل في العالم إلا وقد أخطأ في طفولته مرة بل مرات دون أن يتعمد الخطأ وأفلت من العقاب ، فإن صح زعمهم كان كل إنسان مزوراً ومجرماً وفاسقاً شريراً ، ومن الملاحظ أن الأطفال الذين يشبون في جو قاس مشجع بالإرهاب المسرف والتأديب الخفيف ، يفسدون فيما بعد عندما تطلق لهم الحرية ، والذين يقتل عليهم في المال وهم صغار يصبحون مبذرين متلفين عندما يرثون أموال آبائهم المقترين.

وقد رأى المحدثون من علماء النفس في آلاف الحالات التي درسوها ما للمعاملة القاسية والإرهاب والتخويف والوقوف في طريق الغرائز الطبيعية من أثر سيء في أعصاب الأطفال وسلوكهم وهم صغار ، وانحراف في شخصيتهم وشذوذ في طباعهم وهم كبار ، فتادوا بمبدأ الحرية في التربية والتعليم فتجد ستانلي هول زعيم المدرسة الأمريكية وفرويد زعيم مدرسة اللاشعور والتحليل النفسي وآلاف غيرهم يرون الغرائز بطبيعتها ليست خيراً ولا شراً لأنها تدفع الإنسان إلى مجرد فعل الشيء الطبيعي ، والشيء الطبيعي ليس خيراً ولا شراً في ذاته وإنما الذي يجعله كذلك هو العرف وظروف البيئة وقوانين

المجتمع ، والغرائز دوافع طبيعية يجب أن تشبع ، وحتى إذا اتجه الطفل وهو صغير في اشباع غرائزه الفطرية نحو الأمور الضارة ، التي لا يقره عليها العرف والمجتمع ، فإنه مع هذا إذا أطلقنا له الحرية كاملة ، ليقع في الخطأ ويرتكب النقيصة ، فإنه سيجد في هذه الحرية ما ينفس عن نزعاته الضارة بحيث لا يصل الى دور البلوغ إلا وقد أخرج من نفسه كل النزعات الضارة كما يفعل المسهل في جسم الإنسان . ولا يبقى لديه رغبة أو شيء يتوق للوصول اليه ، ولا يجد شيئاً ممنوعاً يغويه على أن يتبعه ، وبذلك يزول الغث في طبعه ويبقى الثمين (٣١) .

وإذا لم يكن هذا ميسوراً في بيئتنا التي ألفت نظام الشدة والقمع ، فلا أقل من أن نتوسط بين الرأيين ، فنقول مع الموقفين ، إن الوقوف في طريق الغرائز معارض لطبيعة الإنسان ومعتل للقوى الحيوية ، والحرية الكاملة قد يسيء الأطفال ، ومن هم في حكمهم استعمالها ، أو على الأقل إذا نشأوا نشأة طبيعية صرفة ، قد يصعب عليهم فيما بعد الاندماج في مجتمع غريق في تقاليده ، غريق في عرفه وآدابه ، فالأجدى إذن أن نجعل الغريزة أو لا تحتفظ بكل نشاطها واتجاهها وأسلوبها ، ولكننا فقط نستبدل بالغرض الذي يبدو ضاراً ، غرضاً آخر من نفس نوعه يكون مشروعاً ومقبولاً عند المجتمع ، وبحقاً لمصلحة الفرد والجماعة ، فنجعل الطفل المقاتل المشاكس الذي يعتدى على الصغار أو يضرب الأرض والأحجار بقدمه فيتلف حذاه ، يستمر في المقاتلة بجسمه ورجله وقدمه وإنما في لعب الكرة ، وهذا أمر مشروع ، وبذلك يستخدم القتال والمشاكسة في عمل غير ضار ، أو نجعله رئيساً لفريق الكرة أو مراقباً للمذنبين والمعاقبين وهو منهم ، فيعاون المدرسة على حفظ النظام بمشاكسته ، وهذه طريقة الإبدال أو التعويض .

وفى الخطوة الثانية تنقل الغريزة كلها من مستواها الفطرى الحيوانى ومن أغراضها المادية الطبيعية إلى مستوى أخلاقى وأغراض أدبية ومعنوية فننقل الخوف على المصلحة المادية والأمور التى تعرض البدن والمال إلى الخطر وإلى الخوف على الكرامة والدين والوطن والأخلاق ، وتنقل المقاتلة من مهاجمة الأعداء الذين يعتمدون على أشخاصنا ومصالحنا الشخصية إلى القتال فى سبيل الوطن وفى رفع منار العلم .

وقد روى عن أبى موسى أن أعرابيا أتى الرسول فقال يا رسول الله : الرجل يقاتل لمغنم والرجل يقاتل للذكر ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال الرسول : من قاتل لتكون كلمة الله العلىا فهو فى سبيل الله ، وقد سمي الرسول جهاد النفس بالجهاد الأكبر وجهاد الحرب بالجهاد الأصغر ، وتنقل التسلط من المباهاة والمفاخرة بالملابس والحسب والنسب إلى المباهاة بالتاريخ القومى والعمل على رفع شأن الأمة لتكون فخوريا بها وبالانتماء اليها ، وبالجملة ترفع الغريزة من المستوى المادى الفردى المتعلق بالذات إلى المستوى المعنوى المتعلق بالجماعة وهذه هى طريقة الإعلاء أو السمو .

وخير ما نختتم به هذا الباب المثل الرائع الذى ضربته العلامة تومسون : ٣٢ : لو اعتبرنا الدوافع الغريزية أو القوى المحركة للانسان نهراً سريع الجريان كثير المياه شديد التيار ، فإننا نستطيع أن نتحكم فيه بالطرق الآتية - أولاً بالقمع أو المنع ، بأن نقيم سداً يمنع وصول الماء بتأناً الى ما ورائه ويقف تيار النشاط الغريزى ، فيؤدى هذا الإجراء حتماً الى أمور ، منها أن يتغلب الماء على السد فيفتته ويهدمه ويتمثل هذا فى ثورة الانسان على النظم والقوانين والعرف والدين ، كما يحدث عند الأشخاص ذوى الشخصية الكبيرة بطبعهم . أو يتغلب السد على الماء تماماً عند ما يكون النظام قوياً قاسياً ،

فيحفر الماء له مجارى وسرايب تحت الأرض يركد فيها ويأسن ويصبح
 موقعا للجراثيم والقاذورات ، وهذا ما نجده فى الأطفال والكبار الذين
 يشبعون غرائزهم سرأ بطرق شاذة غير مألوفة ، وقد وقف المجتمع والنظام
 فى سبيلهم فيصبحون شاذين شذوذا خلقيا ، أو يندفع الماء على نفسه ، فينقسم
 العقل على نفسه إلى قسمين كل منهما يصارع الآخر ويصرعه ، وينتهى الأمر
 بالشذوذ العقلى والاضطرابات العصبية والجنون وانقسام الشخصية (٣٣) .
 فإذا خشينا أن نفتح السد كله ونترك الماء حرا يجرى من جميع جهاته ،
 فيغرق الشواطىء والأرض ، ولا نريد أن نصبر على هذه التجربة حتى يستقر
 فيما بعد فى الوادى الذى يناسبه ، فلا أقل من أن نبني من وراء السد قناتين
 تقللان من ضغط الماء على السد ، فنضمن أن تسير الغرائز سيرا هادئا مفيدا
 للفرد والمجتمع ، وهاتان القناتان هما (الإبدال والإعلاء) .

الباب الثالث

الإنفعالات

شكل غريزة من الغرائز الإنسانية إنفعال واضح محدود يظهر على الإنسان كلها وجد في موقف يستفزها ويشيرها فتميز به الغريزة عن غيرها من الغرائز وتتلون به نفس الإنسان، وتظهر آثاره على ملامح وجهه وحركات أطرافه، ويشعر به يتملكه في داخل نفسه، وبالمجمل يصطبغ به سلوكه وتصرفه مادامت الغريزة تتسلط عليه في هذا الموقف الخاص، وفي الحديث الشريف: «يكاد المريب يقول خذوني»، ويقول الرازي الطبيب: «لاحظ أن ما يجري في نفس الإنسان من خواطر وما يعانیه من آلام يمكن أن يستشف من خلال الملامح الظاهرة»، ويقول ابن المعتز:

تفقد مساقط لحظ المريب فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوارده في الكلام فانك تجنى ثمار القلوب
ويقول آخر:

الود لا يخفى وإن أخفيته والبعض تبديه لك العينان
فلا نفعال الأولى هو إذا الشطر الثاني من الغريزة والمظهر الوجداني لها، بحيث كلما أثرت عند الإنسان غريزة ما ظهر الانفعال على الإنسان في حالته الفطرية الأولية، فعند الحرب من الخطر يظهر الخوف، وعند المقاتلة والكفاح يظهر الغضب، وعند النفور يبدو التفرز أو الاشمئزاز، وغريزة السيطرة أو التسلط تتميز بالشعور الإيجابي بالذات فيشعر الإنسان بأنه موجود وجوداً إيجابياً فعالاً مسيطراً، في حين يتميز غريزة الخضوع

أو الاستكانة بالشعور السلبي بالذات فيحس الخاضع كأنه فقد ذاته وإرادته .
وغريزة الاستطلاع بالتعجب من كنه الشيء الغريب الذي نستطلع به ،
والتجمع بالانتناس بوجود الغير والغريزة الوالدية بالحنو على الصغير
والحذب عليه (٣٤).

ونحن جميعاً نشعر بالخوف يتملكنا ويدفعنا للهرب أو يشل حركتنا
عند ما نواجه موقفاً لم نتعرض فيه للخطر ، لا في حياتنا فحسب بل وفي
مصالحنا وحياتنا من يتصل بنا من أهل وأصدقاء ومصالحهم . ونشعر بالغضب
يدفعنا للمقاتلة والكفاح إذا ما اعتدى علينا معتمد أو وقف في طريق رغباتنا
حائل ، وتعطلت إحدى الغرائز عن الوصول لغرضها ، وتشعر بالتقزز
والغثيان وما القى إذا نفرنا من شيء كرهه أو رائحة نتنة ، أو طعام فاسد ،
أو رجل قدر . وندرك ذاتنا موجودة بارزة تريد أن تتسلط وتسيطر على
من هو أقل منا قدراً أو علماً أو مكانة . وبالعكس نشعر بذاتنا مستكينة
وإرادتنا مسلوكة كأن لا وجود لها إذا واجهنا من هو أعلى منا شأنًا وأكبر
جاهاً أو علماً ، وتعجب للشيء الغريب عند ما نراه لأول مرة ، وندهش له
ونقلبه من نواحيه المختلفة لتتعرف كنهه ، والآباء منا يعرفون شعور
الحنو على أولادهم والصغار من بنى الإنسان والحيوان .

ولكل إنفعال أولى ما يميزه عن غيره - من تغير في ملامح الوجه والنبض
والنفس وإفرازات المدن والحركات التي يأتيها الإنسان وكذلك الشعور
النفسي الداخلي الذي يتملكنا يختلف في كل حالة إنفعالية عنه في
الحالات الأخرى .

وقد ذكرنا أنه لا يتعين أن تظهر التغيرات الخارجية على الإنسان في كل
حالة إنفعالية . فقد يستطيع الإنسان كلما تقدم في السن وزادت خبرته

وقويت إرادته - أن يكتُم الانفعال في نفسه فلا يظهر عليه شيء منه يتم عنه ، فيكون خائفاً بالفعل أو غاضباً ولكنه يضبط شعوره فلا تظهر عليه علائم الخوف أو الغضب مع أن الانفعال يتملكه من الداخل على كل حال ، بل إنه من حسن إيمان المرء وكمال خلقه أن يكتُم غيظه فلا يبدع الغضب يظهر على ملامح وجهه . وفي الأحاديث الشريفة : (مامن صرعة أعظم أجراً عند الله من صرعة غيظ كظمها عبد انتغاء وجه الله) . (ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) (من دفع غضبه دفع عنه الله أذاه) وقال الله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ويقول الإمام المراغي في تفسير كظم الغيظ : « الكاظمين الغيظ الذين حبسوا غيظهم مع امتلاء نفوسهم منه ، وصبروا على الأذى والمكروه ، فلم تظهر عليهم آثار الألم عادة ، ولم يصدر منهم أذى لمن غاظهم ، (٣٥) .

وليس معنى التسامح ولين العريكة والصفح أن يتلاشى الغضب فلا يشعر الإنسان به في داخل نفسه ولا يظهر عليه شيء منه ، وإنما معناه منع التعبير الخارجي فقط ، فالرجل الذي لا يغضب جماد لا عقل له ولا كرامة . وهذه الانفعالات الأولية أثرها بالضرورة وقى إن كانت في حالتها الطبيعية لأنها تظهر عند ماثير غرائزها مشير ، ثم تزول بزوال المشير ، أو بوصول الغريزة إلى غرضها واستكمال نزوعها ، فالإنسان نزوعها فالإنسان في ساعة الخطر يخاف ويجرى فإذا زال الخطر زال الخوف وعاد الإنسان طبيعياً كما كان بعد قليل من الزمن يكفي لإزالة الاضطراب البدني ، وقد يخاف شيئاً ما في ظرف ولا يخافه في ظرف آخر ، ولكن قد يحدث في بعض الأحيان أن يزيد الانفعال عن حده الطبيعي فتكون له آثار خطيرة تستمر

مدة طويلة فقد يشتد الخوف حتى يصبح رعباً يؤثر في الجهاز العصبي تأثيراً
سيناً يبقى إلى حين ، أو يؤدي إلى الصرع والاعضاء أو الشلل والموت .

الانفعالات الثانوية : على أن مواقف الحياة ليست من السهولة والبساطة

بحيث تتطلب استعمال غريزة واحدة في كل مرة ، فإن هناك مواقف تثير
غريزتين أو أكثر فيشعر الإنسان بانفعالين أو أكثر يتملكه الواحد تلو
الآخر ، ويشعر بهذا التقلب في نفسه ، فالطفل الصغير إن رأى زائراً غريباً
قد يشعر بالخوف منه فيجرب بعيداً ثم يدفعه الاستطلاع فيعود أو يخاف
فيجرب ، وهكذا يتملكه الخوف تارة فيتأخر والتعجب تارة أخرى فيتقدم
وقد يأتلف الانفعالات ويمتزجان . يث لا نستطيع أن نفرق بينهما ، وفي
هذه الحالة يتألف منهما انفعال واحد متمزج أو ثانوي ، فنحن إذا رأينا مثلاً
قرداً يقوم بحركات بهلوانية ، أو طفلاً يمشي نشيداً نشيداً تشعرون نحوه بانفعال
التعجب لا غير ، أما إذا حضرنا محاضرة لأستاذ ضليع أو عالم كبير فإنا
نتعجب من قدرته وبراعة أسلوبه ونشعر في الوقت بأنفسنا شعوراً سلبياً
لعظم الفارق بيننا وبينه ، وهنا يتملكنا انفعال الإعجاب ، فالإعجاب إذن
هو انفعال ثانوي متمزج من التعجب والشعور السلبي بالذات .

وبالمثل نجد الشعور بالممنونية والاعتراف بالجميل مزيجاً من الخوف
والشعور السلبي بالذات والحسد مزيجاً من الغضب والشعور السلبي بالذات
إذ لا يكون هناك حسد إلا من المحرومين لأنهم الله عليه فيتمنى الحاسد
زوال النعمة عنه ، وقال تعالى : أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ،
أما الرهبة التي تستولى علينا في بيوت العبادة أو عند مشاهدة الظواهر
الحارقة للعادة أو مقابلة الملوك والحكام فهي مزيج من الخوف والإعجاب
أو هي انفعال ثلاثي مزيج من الخوف والتعجب والشعور السلبي بالذات

وجميع الانفعالات الثانوية الممتزجة يمكن تحليلها إلى انفعالاتها الأولية .
 الإنفعالات المعقدة أو المركبة : وهناك طائفة من الإنفعالات المعقدة
 التي لا يمكن تحليلها إلى انفعالاتها الأولية . وإنما هي حالات وجدانية
 تصطبغ بها النفس فتتأثر بها مدة طويلة تلازمها فيها فتتغير إلى الحياة بمنظارها
 كاليأس والأمل والندم والحسرة ، وهي لذلك تتصل بالحياة ذاتها ماضيها
 وحاضرها ومستقبلها — كالندم على الماضي واليأس للحاضر والمستقبل .

ومن هذه الإنفعالات المعقدة مالا يتبع غرائز وإنما يتصل بالعواطف
 التي سنشرحها فيما بعد ، فلا يوجد إلا مصاحباً لمعاطفة ، فعاطفة الحب مثلاً
 يتصل بها العتاب أو الغضب اللطيف بالحنو . فاذا أساء الغريب إلينا غضبنا
 غضباً شديداً قد يدفعنا إلى مقاتلته والبطش به ، أما إساءة الحبيب فيلطفها
 الحنو وينقلب الغضب إلى عتاب .

والغيرة تنشأ من اتصال شخص آخر بالمحبوب لأن المحب يريد الإستئثار
 بمحبوبه ، ومن حقه أن يكون الحنو والود كله وقفاً عليه ، وبذلك تتمسكه
 الغيرة إن شاركه فيه إنسان آخر ولو بقدر ضئيل .

ومن الإنفعالات التي تتبع عاطفة الكراهية الإنتقام ، وهو الغضب
 الملح الذي لا يهدأ بغير القضاء على المكروه أو إيقاع الأذى به ، وأخذ الثأر
 منه ، والحنجل يتبع عاطفة الإحترام بل هو أساسها ، فكل موقف يشعر فيه
 الإنسان أنه أتى أمراً منافياً للكرامة أو محقراً له بين الناس يثير فيه الشعور
 بالحنجل والندم (٣٦) .

الباب الرابع

العواطف

العاطفة الأولية : وهناك ناحية تتطور فيها الانفعالات — من أولية وثنائية ومعقدة — أو بعبارة أصح النزعات الوجدانية فتنظم وتأتلف حتى تصبح عادة قوية أو دعامة نبني بها حياتنا الوجدانية بناء عالياً نرتفع به إلى مستوى العواطف الكاملة والشخصية القوية والخلق القويم .

ولأجل أن نفهم هذا التطور وكيف تسير الحياة الوجدانية في طريق التنظيم نفترض أن مدرساً يعاقب تلميذاً ما مرة عقاباً شديداً ، فإن هذا التلميذ يخاف المدرس وقت العقاب وقد يحافه خوفاً شديداً ، ولكن هذا الخوف لا يلبث أن يزول بزوال الظرف الذي استوجب العقاب ، أو يعرف التلميذ ذنبه ، وأنه أخذ جزاءه عليه ، فلا يكرر فعله ، بحيث إذا حضر المدرس في الدرس التالي أو في يوم آخر ولم يفعل التلميذ ما يستوجب العقاب فإنه بالضرورة لا يخاف المدرس بل وقد لا يذكر الظرف السابق أما إن حدث أن عاقب المدرس التلميذ مرة ثانية فثالثة وتلاحقت مرات العقاب ، ولو بسبب فإن الخوف المتكرر يتركز في نفس التلميذ ويصبح أقوى أثراً أو أطول أمداً ، وينتهي الأمر بأن يصبح المدرس مخيفاً للتلميذ ومثيراً لغريزة الهرب كالمثيرات الطبيعية تماماً ، فيخاف التلميذ من المدرس وقت العقاب فحسب وإنما من صوته وصورته ومنزله واسمه وكل ما يتصل به ، في غيابه وحضوره على حد سواء .

وبذلك يتحول الخوف من انفعال أولي طارئ تحدثه المثيرات الطبيعية

التي تثير غريزة الهرب إلى عاطفة أولية تربط التلميذ الخائف بالمدرس الخيف ، فالعاطفة الأولية تنتج من ارتباط انفعال أولى بمؤثر خاص يصبح بحكم استمراره وتكراره مشيراً لهذا الانفعال بسبب أو بدون سبب ، وكذلك تكون عاطفة الغضب الأولية نحو شخص ما بحكم أنه أثار الغضب في نفوسنا لسوء تصرفه ، أو إعتدائه علينا ، أو الوقوف في طريقنا مرات عديدة متلاحقة حتى أصبحنا نغضب منه في معظم الأوقات والظروف حتى إذا لم يحدث منه ما يسبب هذا الغضب .

ولكن العاطفة الأولية لا تستمر على حالتها البسيطة مدة طويلة فهي إما أن تزول وتلاشى بمضى المدة بتغير وجهة نظرنا مع الزمن نحو من يثيرها ، وأما أن ينضم إليها انفعال ثان فثالث فتقوى في كل مرة وتنتهي إلى عاطفة قوية متسلطة تتكون من عدة إنفعالات متألفة منتظمة حول هذا الشخص بحيث لو وجد بشخصه أو من أو ما يتصل به ، ثور في النفس بعض هذه الإنفعالات أو كلها ، فالتلميذ الذي تكونت عنده عاطفة الخوف الأولية نحو المدرس يشعر بعد مدة بالنفور من المدرس والمدرسة . وينضم هذا النفور إلى الخوف فتزداد العاطفة الأولية قوة وتصبح عاطفة ثانوية مكونة من انفعالين ، ثم يثور التلميذ بعد ذلك على هذه المعاملة القاسية فيغضب ، ويتعجب من أحوال هذا المدرس ، وقد يشعر في نفسه برغبة ملحة للانتقام منه . ويستولى عليه الخوف واليأس ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل ينضم إلى العاطفة الثانوية إنفعال جديد ، إلى أن يصل إلى عاطفة الكراهية الكاملة ، وهكذا يتدرج من انفعال الخوف الأولى إلى عاطفة الخوف الأولية . إلى عاطفة ثانوية من خوف وغضب ، وينتهي بالكراهية وبالعكس قد يتدرج من الحنو والإعجاب والتقدير إلى الصداقة والإحترام

وينتهى بعاطفة الحب الكاملة . وهذه هي المرحلة الأخيرة في التطور الوجداني التي يرقى إليها الإنسان عن طريق العواطف الأولية ذات الإنفعال الواحد إلى العواطف الثانوية ذات الإنفعالات فأكثراً ، وأخيراً إلى العواطف الكاملة التي تنظم أكبر عدد من الإنفعالات يمكن أن يتجمع حول شيء واحد .
فالعواطف إذن ميول وجدانية مكتسبة تتكون بحكم الظروف والبيئة والإختلاط بالناس وإن كانت أسسها إنفعالات مصاحبة لغرائز موروثة (٣٧) .

ولكل عاطفة تاريخ نمو وحياة وتطور ، إذ تبدأ جنيناً صغيراً من انفعال واحد ثم ينمو ويتوسع كلها انضم إليه إنفعال آخر ، حتى تنضج وتكمل فتصير عواطف كاملة — من حب أو كراهية ، أو احترام للذات والواجب ، ويسرى عليها ما يسرى على كل كائن حي ، فهي في حاجة إلى غذاء ينمّيها ورعاية خاصة وعناية مستمرة فالحب في حاجة دائمة إلى إذكاء الحب وإبقائه حياً نامياً وإلا خمدت جذوته وانطفأت وهرمت العاطفة واضمحلت وماتت .

وقد صور شوقي رحمه الله تطور العواطف تصويراً لطيفاً في بيتين :
نظرة فابتسامه فسلام فكلام فموعد فلقاء
ولقاء يكون فيه دواء وفراق يكون فيه الداء
ولذلك نهى الرسول عن نظرة الفجأة وأمر من سأله عنه أن يكف فلا يتبع النظرة بأخرى لأنها قد تشير فيه شهوة الغريزة التناسلية أو تعقبها صلة تؤدي إلى عاطفة تورط الإنسان فيها لا ضرورة له ، أو تدفعه إلى الفاحشة وانشغال البال والقلب .

وفي الحديث الشريف : « العينان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، والفرج

يزنى، فالجوارح تؤدي إلى الزنا، وفي حديث آخر: «لتغزن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليسكفن الله وجوهكم».

العاطفة السكاملة: إذا انتظم أكبر عدد ممكن من الانفعالات النفسية حول شيء ما تكونت في نفس الإنسان عاطفة كاملة نحو هذا الشيء. ويرى العلماء المحدثون أن العواطف السكاملة (النموجية) ثلاث: الحب، والكراهية، واعتبار الذات (أو احترام الذات أو عاطفة الكرامة والواجب).

ولما كانت الانفعالات محدودة العدد، لزم أن تشترك العواطف السكاملة في معظم هذه الانفعالات، فالحب والكراهية يتألفان من انفعالات — الخوف والغضب والشعورين الإيجابي والسلبي لذاته والتعجب. أي أن كلا من هذه الانفعالات موجود في كل من عاطفتي الحب والكراهية، والفارق في الحالين يكون في اتجاه الانفعال نحو مركز العاطفة أو بعيداً عنه، منصباً عليه أو على غيره. فالحب يشعر نحو محبوبه أو الشيء الذي يحبه بالخوف عليه والإشفاق والقلق إذا تعرض للخطر، والغضب عند الاعتداء عليه كما يغضب لنفسه بل وأشد، ويشعر بنفسه شعوراً إيجابياً عند تسلطه عليه والاستئثار به، والظهور أمام الناس بمظهر الجدير بهذا الحب، ويشعر كذلك نحوه شعوراً سلبياً يتمثل في تذله وخضوعه ويتعجب من كل أعماله ويعجب بها ويراهم بعين الرضا حتى عند الإساءة ويشعر بالحزن لفقدته وغيبه والسرور إن ناله خير والشكر والامتنان لمن يحسن إليه. أما في عاطفة الكراهية فإننا نخاف الشيء المكروه ذاته ونغضب منه ومن ينصره ونشعر نحوه شعوراً سلبياً، لأن الإنسان لا يكره أحداً (في بعض الآراء) إلا إذا شعر في نفسه بأنه أقل منه مكانة أو مقدرة في ناحية من النواحي وإلا اكتفى

باحتراره من دون أن يكرهه ، ويتعجب من سوء أعماله وتصرفاته التي لا تصدر في نظره من إنسان عاقل ، ويقلل من قدرها ويشعر بالسرور إن أصابه شر ويتمنى له الأذى .

ولكن على الرغم من هذا الإشتراك فإن عاطفة الحب تنفرد وحدها بانفعال الخنو ، كما أن عاطفة الكراهية تنفرد بالنفور ، بل أن تكون عاطفة الحب يكون أسرع وأقوى لو بدأت بالخنو ، وعاطفة الكراهية لو بدأت بالنفور .

مركز العاطفة : ولا يتعين أن يكون مركز العاطفة شخصاً نخبه أو نكرهه فقد يكون شيئاً مادياً يحبه الإنسان أو يكرهه كما يحب إنساناً سواء بسواء . فالبخيل يحب ماله ويتعشقه ويتلذذ بملسه ومرآه ، ويرى فيه سعادته وسروره كما يفعل الحبيب تماماً ، وكذلك العاديات والكتب عند من يهوى جمعها . وقد يكون المركز فكرة أو مبدأ فيجب الإنسان دينه ووطنه ، أو الإنسانية والفضيلة أو يحب فناً كال موسيقى ، فيكرس له كل وقته ويحرص عليه ويقاتل في سبيله ويخاف عليه من كيد المخالفين والمعارضين ، ويتمسكه نحوه حب عميق وكراهية لما عداه ، قد تصل به إلى درجة عظيمة من التعصب .

عاطفة الحب : تناول الناس من قديم الزمان — من فلاسفة وشعراء وأدباء — هذه العاطفة بالدرس والتحليل وجعلوها بحق على رأس العواطف الإنسانية ، وعرضوا للصلة بين المحبين وما يربطهم من شعور متبادل ، وما يحده كل منهم في نفسه من مشاعر وأحاسيس نحو الطرف الآخر . فترى عبد الله بن طاهر ذا الرياستين يقول فيه عند ما سأله المأمون عنه « يا أمير المؤمنين : إذا تقاومت جواهر النفوس بوصل المشاكلة انبثت

منها لمحّة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء فتتحرك لإشراقها طبائع الحياة فيتصور من ذلك خلق خاص للنفس متصل بجواهرها يسمى الحب . . . وحقيقة النفس عند المتصوفة حالات أو أنواع من الشعور باللذة والألم ، وأهم ما في ذلك هو الحب الذي يسموا بنا إلى الله ، وليس هو الخوف أو الرجاء ، وليست السعادة معرفة ولا هي إرادة ولكنها في الاتحاد بالمحجوب (٣٨) .

ويقول إخوان الصفا : « المحبة أسمى الفضائل — وهي المحبة التي نهايتها الفناء في الله المحجوب الأول وتظهر هذه المحبة في هذه الحياة نفسها على صورة الصبر المشبع بروح التقوى والرضا عن جميع الخلق » .

ويقول ابن مسكويه : « أساس الفضائل وأول الواجبات جميعاً هو محبة الإنسان للناس كافة ، وبدون هذه المحبة لا تقوم جماعة قط » (٣٩) .

ويرتب درجات المحبة في موضع آخر فيقول : « أحكام الشريعة لو فهمت على وجهها الصحيح لكانت مذهباً خلقياً أساسه محبة الإنسان للإنسان ، والدين رياضة خلقية لنفوس الناس ، وغاية الشعائر الدينية ، — كصلاة الجماعة والجمع — هي أن تغرس الفضائل في نفوس الناس ، فهي تعلمهم محبة الجار في أوسع صورها وأعلى درجات الحب عنده محبة العبد الخالصة ومنها محبة الحكماء عند تلاميذهم ، وبعدها محبة الوالدين » (٤٠) .

وليس الحب صلة بين الرجل والمرأة فحسب ، فإن الصداقة نوع سام من الحب ، فيها كل ما في الحب المألوف من الألفة والتوافق ، بل إن بعض المفكرين والفلاسفة يضعون الصداقة فوق الأخوة والقرابة والنسب ، فأرسطو يراها امتداد في حب الإنسان لذاته حتى يشمل غيرها ، ومن ثم يكون الصديق في منزلة النفس . ويقول البهاء زهير في وصف ليلة :

قطعتها ولا تسلم عن الخير بصاحب حلو الحديث والسمير
تجضر كل راحة إذا حضر

ويقول الطائي :

ذو الودمى وذو القربى بمنزلة وإخوتى أسوة عندى وإخوانى
عصابة جاورت آدابهم أدبى فهم وإن فرقوا فى الأرض جيرانى
أرواحنا فى مكان واحد وغدت أبداننا بشآم أو خراسان
وعن سعيد بن المسيب . قال — كتب إلى بعض إخوانى : « وعليك
ياخوان الصديق فكُن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرخاء وعدة عند عظيم
البلاء ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى
الله تعالى . »

والمثل الأعلى للصدقة يتمثل فى حب المؤمن للمؤمن وصداقته له ،
فإنها تجعلهم إخوة متحابين ، متساوين فى الحقوق ، مشبعين بروح الإيثار .
والله تعالى يقول فى كتابه الكريم : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا
بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » وفى الأحاديث الشريفة « المسلمون
تسكافاً دماً ، ويسعى بذمتهم أدناهم » و « مثل المؤمنین فى توادهم وتراحمهم
وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر
والحمى » . وفى حديث آخر المسلم « أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه
ولا يتناول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه »

ويقول الإمام المراغى : « الإيمان عقد بين أهله ، من السبب القريب
والنسب اللاحق ، وهو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ،
ولم يتقاصر عن غايتها » (٤١) .

ومن الناس من تغريهم الملذات والمتع المادية ، فيجعلون مركز عاطفتهم

شيئاً مادياً كالمال أو النساء، فتنصب حياتهم على الإكثار ويجدون المتعة كلها في دوام الاتصال به، كما يشعر المحب نحو حبيبته أو المؤمن نحو المؤمن فالبخيل يتمتع برؤية ماله ولمسه وسماع رنينه، بل إنه ليحتضنه ويقبله ويتغزل فيه كما يفعل المحب الواله. والله تعالى يقول: « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ومن الناس من يحب المال لذاته وهذا بخل وشح مذموم.

وفي الحديث: « ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه » ومنهم من يتخذ المال وسيلة للجاء والرفعة وقضاء الحاجة. وفيه يقول المراهي: « الأموال محبوبة للنفس، ركز في طبيعة الإنسان الحرص عليها، فهي الوقاية وهي العون عند الشدة، بها الحياة ومنها الاستمتاع بما تنازع إليه النفس وتتقاضاه الطبيعة من اللذات والشهوات، وبها يدرك العز وينال الفخر والجاه » (٤٢).

ويروى الغزالي عن عمر بن يحيى بن خالد بن برمك: أنه كان بخيلاً شديد البخل، وله نسيب بائس. فقال له بعضهم: أنت منه بهذه المنزلة وأثوابك ممزقة، فقال: إني لا أقدر على أبرة أخيطها بها ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً أبراً ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب أبو يوسف يستعيرون منه أبرة يخطون قميص يوسف الذي قد من دبر ما فعل.

عاطفة الكراهية: وعاطفة الكراهية خطوة ضرورية في تكوين الإنسان حتى يصل إلى أعلى مستوى للسلوك الإنساني، فهي تنظيم الانفعالات المقاتلة المستبعدة، واستغلال لنشاطه في القضاء على أشياء مكروهة مرذولة، وبغيرها لا يتم ثمة إصلاح اجتماعي أو أخلاقي أو ثورة على النظم القديمة

الضارة . ولا بد في كل مجتمع إنساني من وجود طائفة من الناس ، امتلأت نفوسهم بالشر ، وفسدت طبائعهم وانحطت أخلاقهم ، وكان لزاماً على الطائفة الصالحة أن تفقههم عند حدهم ، أو تقضى عليهم إذا فشلت وسائل إصلاحهم ، ولا يتم هذا بغير عاطفة الكراهية في نفوس المصلحين للصفات المذمومة والسلوك المعوج ، والمجرمين المفسدين .

ولكن المؤمن نهى عن كراهية أخيه المؤمن ، وأمر بأن يصطنع كل معروف ويقابل السيئة بالحسنة ، ويدفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . والله تعالى يقول (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً) . لأن الكراهية بين المؤمنين تؤدي إلى التنازع بالفشل (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين) وتدفع به إلى غيبة أخيه المؤمن ، وهي كما يقول الإمام المراغي : (من الغيظ وهياج الغضب ، فيذكر الإنسان عيوب غيره لشقاء النفس من غضبها ، ومجاملة الرفقاء ، وإرادة أن يرفع الإنسان نفسه بالنقص من غيره (٤٣) .

وقد نهى الإسلام عن الغيبة وما يتبعها من السخرية بالناس والغمز واللمز والتناذب بالألقاب (ولا يغتب بعضكم بعضاً) (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلهزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب) . والمفرد في كراهيته مبغوض من الله والناس وإن كان على حق ، وفي الحديث الشريف : (أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم) والألد الشديد في خصومته (٤٤) .

عاطفة اعتبار الذات :

وهناك مستوى آخر للعواطف الإنسانية أسمى من مستوى الحب والكرامية، لا يصل إليه إلا نفر قليل من الناس يستطيعون أن يخضعوا حبهم وكراميتهم للواجب والكرامة، فهم يحبون الأشخاص والأشياء والمبادئ التي يجدون في حبها الشيء الكثير من السرور والمتعة وصفاء النفس وراحة البال، ولا يكرهون لأنهم يجدون في كراميتهم إشباعاً لشهوة الانتقام والسيطرة والظهور وتحقيق المصالح، وإنما هم يضحون بمتعتهم ولذتهم ومصالحهم المادية والأدبية في سبيل الواجب والكرامة ويخضعون حبهم وكراميتهم، فيحبون ويتعاونون مع الأشخاص الذين يقضى الواجب بالتعاون معهم لتحقيق المصالح العامة والمثل العالية، ولو كانوا قبلًا من أعدائهم، ويتناسون الماضي، ويصفون النفوس من ضغائنها ويتجاوزون عن كل اعتبار سابق. لأن الطرف القائم يقضى التعاون في الخير، وقد يضحون بأموالهم وأولادهم في سبيل الوطن أو الدين وهم مصدر الحب الإنسانى وزينة الحياة الدنيا، ويستعذبون الحرمان، ويستمرئون طعم التضحية، فعاطفة احترام الذات التي تمنع الإنسان من فعل ما يمس احترامه لذاته، أو ينافي الكرامة، أو يعطل الواجب، هي تاج العواطف البشرية، وآخر مرحلة في كمال السلوك الإنسانى. ذلك أن أساسها الخجل، كما أن أساس الحب الخنو وأساس الكرامة النفور، فالذى يحترم ذاته يخجل من ارتكاب النقائص والتقصير في أداء الواجب، ويحب الأمور المحترمة ويكره المحقرة، لأنه يرى فيها صوراً مجسمة لشعوره النفسانى، ولا يمكن أن يعرف الاحترام للناس إلا من يعرف كيف يحترم نفسه، والعظيم يعرف

العظماء ويقدرهم حق قدرهم ، والناس كذلك لا تحترم احتراماً صادقاً إلا من يحترم نفسه ، ومن يهن يسهل الهوان عليه .

أما خضوع المرووس للرئيس وتزلف التابع للمتبوع وتخضوع ومذلة تحت ستار الاحترام المموه الكاذب .

ويقول الإمام المراغى فى معرض الكلام عن التعصب للرأى « فى هذه الأحوال يصعب جداً الرجوع عن الآراء إلا على من وهبه الله حب الإنصاف ، وكان الحق عنده أغلى مما يظنه شرفاً وكرامة عند الاتباع وعند الناس — هذه الحالة لا يمكن أن تزول إلا إذا أخلص الناس فى حب الحق ، وآمنوا بأن الحق أغلى من الآراء والأفهام ، (٤٥) .

وليس من شك فى أن العواطف من أهم الأسس التى يبنى عليها سلوك الأفراد الجماعات وخلقهم ، لأنها نظام تام للحياة الوجدانية والنزوعية ، وبدونها تصبح الحياة فوضى ليس فيها نظام أو استقرار واستمرار ، وتصبح كل علاقاتنا الاجتماعية أسيرة للدوافع الغريزية ورهناء للظروف الطارئة ، وانفعالاتنا جاححة غير مستقرة ولا نستطيع أن نتحكم فيها أو نقدر نتائجها أو نوجهها فى عمل صالح منتج ، ولا يكون هناك مجال لاستخدام الإرادة فى الحد من رغباتنا وشهواتنا ، وتكون أحكامنا على الأشخاص والمواقف سطحية متقلبة ، فلا تصل إلى المبادئ الخلقية المتينة ، مادامت تنفجر من نبع العواطف .

ولكن على الرغم من أن مرحلة العواطف قد لا يستطيع الكثير من الناس أن يصل إليها ، ومستواها فوق سائر مستويات التصرف والسلوك ، فإنها تحتاج بدورها إلى تنظيم ، حتى تصبح مجموعة واحدة عاطفية تترابط فيها كل العواطف ، فتسير فى طريق واحد نحو غاية سامية يسعى الإنسان

لتحقيقها ، أو مثل عال يتطلبه ، كما تنظم الإنفعالات في عواطف ، لأن بقاء العواطف منعزلة تعمل كل منها في طريقها غير متعاونة مع الأخرى ، يجعل الإنسان رهن الظروف ، أو تدفع به إلى التطرف والتعصب الممقوت ، للشئ الذى كونه هذه العاطفة ، وتسلبه إرادته وتخضعه لسلطانها ، وتبعد به عن مستوى الخلق القويم كما تفعل الغرائز ، وتستبد به عاطفة الحب مرة وعاطفة الكراهية مرة أخرى ، ويضيع نشاطه بينهما ، لاختلاف مراكز العواطف وتعددتها ، كأن يتردد الإنسان في حالة الدفاع عن الوطن بين حبه لحياته وذاته وأولاده ، والتضحية بهذا كله في سبيل حبه لوطنه أو تردد المغامر بين حب الشهرة ، وكرهية المخاطر التي يتعرض إليها في طريقه لها . وقد يبدو صاحب العاطفة الواحدة القوية المتسلطة ذا شخصية قوية ، ولكنه في الواقع بعيد كل البعد عن المثل الكامل ، فهناك إذن خطوة أخيرة لا بد منها ، وهي ربط العواطف الثلاث السكاملة ، وإخضاعها لعاطفة اعتبار الذات ، فهي وحدها إذا قويت وسادت وتحكمت في سلوك الإنسان تناولت جميع نواحي خلقه ، وخلقته فيه الدوافع والإرادة القوية ، فإذا ما اتصلت بمبدأ سام وغاية نبيلة وصلت بالإنسان إلى ما ليس بعده غاية من كمال الخلق .

عاطفة الدين :

يرى علماء الغرب أن عاطفة الكرامة هي أسمى ما يتوج به الإنسان سلوكه وتكوينه الخلقى ، ولكننا معشر المسلمين يجب أن نبحث عن هذا التاج في تعاليم الإسلام وأن نجعل من حب الدين والإسلام أسمى عاطفة إنسانية ، وأن نبني حياتنا الوجدانية على أساس سليم من حب الله ورسوله الكريم وتعاليم القرآن الكريم والسنة الحميدة ، لأن الإسلام كله تنظيم لحياة

البشر من جميع نواحيها . وهو كما يقول الإمام المراغى : يريد رجلاً عاملاً في الحياة مهذب الأخلاق ، طاهر الأعراق ، قوياً لا يهاب الموت ، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن ، ويندود عن العشيرة — ويريد رجلاً رحيماً حسن المعاشرة سلس القياد لأهله وعشيرته وبنى وطنه ، ويريد رجلاً لا تلهيه الدنيا عن الإتصال بالخالق وأداء حقوقه (٤٦) .

والدين يطلب رجلاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، رجلاً باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . رجلاً خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله في الأرض ، يعلمون سرها ويسخرونه للخير ودفع الأذى ، يدفعون إلى عوادي الزمن بمنابهم كأنها بنيان مريض ، يعرفون للمكرامة قدرها ، وللعزة موضعها ، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير وأبقى (٤٧) .

والقرآن اشتمل على المعارف الإلهية وأحوال العقائد وقواعد الآداب ووضع للناس أصول العدل ، وقواعد الأخلاق ، وبين حق الفرد وحق الجماعة ، ووضع نظام الأسرة ، ووضع الإنسان الوضع اللائق به فأباح له ما في الأرض جميعاً ، ولم يمنع عنه إلا الخبائث ، وحدد له الحدود اللائقة ، فلم يتركه يعامل معاملة السائمة ، ولم ينزله منزلة الملائكة ، وحبب إليه المعرفة ، وكان وسطاً عدلاً شهيداً على الشرائع وعلى الأمم (٤٨) .

ومن المسلمين من تشغله الدنيا بمطالبها ومتعها ، ولا ينعطف نحو الدين إلا بقدر ما تتطلبه أوامره ونواهيه ، فيفعل الأوامر طمعاً في الثواب ، ويتجنب ما نهى عنه خوف العقاب ، ومن ثم يرتبط الدين بغرائزه ، كارتباط سلوك الطفل بأوامر والديه . والإنسان المتوحش بقوانين الجماعة ، وهو في مأمن وفي هدوء بال ، ما دامت عينا والدين لا ترقبه ، ويد الجماعة لا

تمتد إليه . ولكن المسلم الذي يسمو بدوافعه ، فيكون في نفسه عاطفة حب للدين ، يراقب نفسه في كل الظروف والأحوال ، لأن الدين يملك عليه شغاف قلبه ويحتل بؤرة وجدانه ، فهو دائماً معه متصل به ، ويجد في هذه العاطفة الدينية عاصماً له من الفسوق . منفراً من العصيان ، لا خوفاً من العقاب أو طمعاً في الثواب ، بل لأن العاطفة الصادقة تتطلب منه أن يسلك الطريق المناسب لها . والله تعالى يقول : « ولكن الله حبيب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » . ثم هو يحاول جهده أن يحيى حياة الرسول الذي يحبه ليسكون جذراً بهذا الحب الشريف . ويقول الإمام المراغى في شرح ذلك : « لأن المؤمنين ورئيسهم الأعظم منهم ، يجب أن يكونوا بعيدين عن الدنيا والكذب الذي يؤدي إلى المفاسد ، ويجر إلى ويلات قد يشترك فيها النبي الأكرم ، ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمه ، أن يوقعه في مثل هذا الخطر الذي يؤدي إلى الكذب ، وهذا الحب وهذا الإجلال يدعو إلى الإحتراس من وقوع المحبوب فيما لا يليق أن يقع فيه (٤٩) .

ويطالع المرء في كتب السيرة صوراً رائعة لحب الرسول في نفوس الصحابة والتابعين (٥٠) .

وغاية هذه العاطفة الشريفة حب الله والفناء فيه بحيث لا يكون في القلب إلاه . ويقول الكتاب الكريم : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله » ، والمؤمنون كما يقول الإمام المراغى : « لا يجعلون شيئاً من الأشياء شريكاً له ، مستحقاً للعبادة ، له حق التحليل والتحریم ، وحق تقديم القربات ، وحق الدعاء والاستغاثة » (٥١) . ويرى الفلاسفة والمتصوفون والأئمة الذين تشبعوا بروح الدين وحب

الله منتهى سعادة الدنيا والدين في الاتصال بالله ، والاتصال بالناس في حدود حب الله .

وفي هذا يقول ابن ماجه عن العلماء : « ولما كانوا متحابين فإن المحبة هي التي تقرر نظام حياتهم كلها ، ولما كانوا أحباباً لله — وهو الحق — فانهم يجدون راحة نفوسهم في الاتحاد بالعقل الفعال الذي يفيض المعرفة على الإنسان » (٥٢) .

ويقول ذو النون معبراً عن رأى المتصوفة : « إذا وجدت ربى فقدت قلبى ، وإذا وجدت قلبى فقدت ربى » والمقصود بالقلب التعلق بالدنيا وعواطفها ويقول الغزالي : « النفس تبلغ سعادتها العظمى متى أحست بفنائها في الله فالأشياء كلها وحدة يؤلف بينها الحب ، والعبودية الكاملة لله تسمو على الخوف من العقاب أو رجاء الثواب ، وتتجاوزها إلى مقام فيه تحب النفس خالقها حباً روحانياً » (٥٣) .

وقد قسم ابن سينا أصحاب هذه العاطفة إلى مراتب (٥٤) .

فمنهم العابد المواظب على العبادات . والزاهد المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها ، يترك لذات الدنيا مرتقباً ثواباً أخروياً — وأخيراً العارف المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق في سره فيعبد الله حق عبادته ، ويحبه منصرفاً إليه بفكره ، لا يتبع بذلك غير ذات الحق ، فلا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً . فالعارف في أرقى مقام لأنه في زهده تنزه عما يشغل به عن الحق ، وفر من كل شيء غير الحق ، في حين إن زهد غير العارف معاملة ما — كأن يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة — وعبادته معاملة ما — كأن يعمل لأجرة يأخذها في الآخرة هي الأجر والثواب .

الباب الخامس

تطور السلوك الانساني

يتدرج الإنسان من المستوى الغريزي المناسب للحيوان إلى مستوى العواطف الكاملة الخلق بالإنسان في مستويات أربعة :

فهو في حالته الفطرية ونشأته الأولى التي يكون فيها طفلاً أو متوحشاً يخضع أولاً لغرائزه، ويتصرف كما تدفعه، ولا يستطيع أن يقدر نتيجة سلوكه أو يعدل فيه أو ينشد غاية غير الغاية السريعة الملحة التي تريد الغريزة أن تشبع نفسها بها، وليس لإرادته من سبيل لضبط نزعاته وكبح جماح شهواته. فهو يهرب إذا اشتتم رائحة الخطر قبل أن يقدر مبلغه أو يعلم مصدره من غير أن يعد الهرب جبناً وخوراً، وقد يتخذ طريقاً للنجاة، فينجو من خطر مؤقت لما هو أشد منه خطراً. ويقاتل من هو أقوى منه مثلاً إذا غضب من قبل أن يتدبر نتيجة القتال، ويعتدى على الناس لأخذ ما ليس له فيه حق، من غير أن يعد ذلك اغتصاباً.

فإذا كبر قليلاً تلقاه من هو أكبر منه — سناً وجسماً ومقاماً — من الوالدين وأولياء الأمور والمربين والمؤدين، وبدأ المشرف على أمره يحاسبه حساباً مادياً عسيراً، يرسم له شئون حياته رسماً دقيقاً، ويفرض عليه نظاماً ثقيلاً، فيعاقبه عقاباً بدنياً مؤلماً إن أخطأ، ويثيبه ثواباً مادياً مريحاً إن أصاب، فيتألم للأولى ويسر للثانية، ويتخذ الألم والسرور مقياساً لتصرفاته. فيفعل ما يحقق له السرور ويتجنب ما يحدث الألم وتدور حياته كلها في هذا الدور حول محور السرور والألم الماديين، وبتأثير هذا

المحور يتعلم كيف يحد من نزواته وغرائزه بعض الشيء ، فيتجنب الوقوع في الخطأ وهو يطلبه ويشتهيه ويقوم بما يرضى الغير وهو كاره له ، ولو لم يحرف للحالين سبباً أو حكمة ، وينقلب بذلك من مخلوق أناني إلى إنسان مادي نفعي .

ويقول الإمام المراغي « وللمؤمنين درجتان عليا وهي ترك الشر لأنه خروج على النظام الإلهي ، ودنيا وهي ترك الشر خوف العقاب » (٥٥) .
ولكن الخلق الاجتماعي المبني على مجرد الخوف من العقاب وإرضاء صاحب السلطان لا يليق بالإنسان المتمدن ، فهو خلق العبد الأسير المسلوب الإرادة . ولا يكون الرجل ذا خلق مقبول إلا إذا فعل الفضيلة بوازع من نفسه غير متطلع إلى نتيجة يتطلبها أو منفعة يحصلها ، ولو كان مطيعاً للقوانين ، يعمل بالأوامر وينتهي بالنواهي فهو إذا كبر وارتقى عقله واتسعت مداركه وتجاربه وازداد احتسكا به بالناس ، واندمج في الجماعة ووقع تحت تأثير سلطانها ، يدرك أن الناس قد تواضعت على أشياء يستحسنونها ويميلون إلى من يفعلها ، وأشياء أخرى يستهجنونها ويذمون من يقومون بها ، فيدخل في سلوكه عامل جديد ، هو إرضاء الناس ثمناً لثناهم ومديحهم وتجنب ما يجلب النقد والمذمة . وبذلك يتعدل الثواب والعقاب الماديان بعض الشيء ، فيصبحان معنويين ، متمثلين في المدح والقدح ، ويدافع هذين العاملان يتصرف الإنسان ، فتجى تصرفاته خاضعة لرقابة المجتمع وأحكامه والعرف والتقاليد ، فيفعل ما يرضى الناس ويتظاهر به ولو كان كارهاً له ، ويتبعد عما يذمه الناس وإن كان في نفسه يرضى عنه ويود لو يدعو إليه ، ومن الناس من يضحي بما يملك في سبيل الحصول على الشهرة وحسن الاحدوثة ، والسكوت عن الحق المؤلم خوف النقد والخروج على

الجماعة ، وقد يطغى الألم من ذم الناس على السرور من إرضاء الضمير ، فيندفع الإنسان في غير الطريق السوى ، وفي هذه المرحلة يحب الإنسان أشياء ويكره أشياء أخرى ويتصرف في مستوى العواطف ، ولكنه ليس جباراً خالصاً لله والضمير ، وفي الحديث الشريف : « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له بما كان اشتغالك ؟ فيقول بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارىء ، وقد قيل ذلك فيؤمر به إلى النار » .

وأخيراً ينظر الإنسان إلى نفسه مجردة عن كل اعتبار وإلى أعماله بالمنظار الذى يرضى ضميره وترتاح إليه نفسه ، فيسمو فوق المدح ، ولا يغيره سماعه وفوق النقد فلا يؤذيه ولو كان شديداً ، ويصبح رجلاً ذا كرامة ودين ، واحترام لنفسه ، لا يفعل إلا ما يراه حقاً ولو أضربته تمسكه بالحق ، ويتفانى في مبدئه ولو كان فيه هلاكه ، ويتجنب النقائص خجلاً من كل ما لا يتفق وكرامة الرجل الفاضل ، ويصبح حبه وكرامته للمبدأ الذى كونه ، والمثل العالى الذى يلتصقه ، والدين الذى يتعلق به ، ويفعل المعروف لا يبيغ به ثواباً ولا مديحاً » ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً .

ولا يبالى برضا الناس ، ولا يطيعهم في معصية الخالق . وفي الحديث الشريف : « من أسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه في سخطه ، ومن أرضى الله في سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخطه في رضاه ، حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه » و « من تحجب إلى الناس بما يحبه وبارز الله تعالى اقى الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان » ويعدل في حكمه ولو على نفسه والآخرين إليه ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

والدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً .

ويضحى في سبيل الحق سرّاً وعلانية ، كما يقول الإمام المراغى : « هذا المؤمن بالله وباليوم الآخر تهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله ، ويهون عليه كل شيء في الحياة في سبيل الحق ، وفي سبيل رضا الله وإعلاء كرامته » (٥٦) .

وفي ختام هذه المرحلة يصل المؤمن إلى درجة السمو ، وكال النفس التي يصورها الإمام علي بن أبي طالب : « بقاء في فناء ، ونعيم في شقاء ، وعز في ذل ، وفقير في غنى ، وصبر في بلاء » .

وكما يقول ابن مسكويه : « لا يزال الإنسان يرقى ويزداد ذكاء وصحة في الفكر وجودة في الحكم حتى يبلغ أفق الملائكة ، ويناسبها ويستمد منها ، والإنسان يترقى حتى يبلغ الأفق الأعلى الخاص به » (٥٧) .

وبذلك يستبدل نفسه الأمانة بالسيوف نفسها آمنة مطمئنة خاطبها الله تعالى بقوله : « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

وتندمج نزعاته الموروثة والمكتسبة كلها في نظام واحد محكم يدور حول الواجب والشعور به ، والحكم على الأشياء والأشخاص في ضوء هذا الواجب ، والمبادئ الخلقية والدينية التي يتطلبها ، واختيار الطريق السوي الذي يحققها ، بل يصبح هذا الإنسان قطعة من الكرامة والواجب والدين ، تمشى بين الناس دليلاً قاطعاً على أن في استطاعة هذا الحيوان الناطق أن يكون إنساناً عاقلاً كاملاً .

الباب السادس

المزاج

عرفنا في البحث السابق كيف تطور سلوك الإنسان من المستوى الغريزي الأولى إلى مستوى العواطف الراقية وكيف ينظم جميع استعداداته الموروثة والمكتسبة في مجموعة واحدة منسجمة مؤلفة تدور حول الإحترام واعتبار الذات فيصبح ذا خلق سليم وتنتج كل جهوده ونواحي عقليته، ووجدانه ونشاطه نحو المبدأ الذي ينشده، أو الفكرة السامية التي يسعى لتحقيقها، كل هذا من الناحية العقلية، أو النفسية، ولو كان الإنسان يسير بالعقل وحده، ولا يتأثر إلا بما يدركه، وما يستطيع أن يتحكم فيه بإرادته وتفكيره أو يجعله مكرراً لوجدانه لانهى البحث عند هذا الحد. ولكن الإنسان عرضة لحالات نفسية كثيرة قد تطرأ عليه فترة ما ثم تزول أو تلامحه مدة طويلة من غير أن يعرف لها سبباً، فتارة يكون منبسطاً، وتارة منقبضاً، أو يغلب عليه الانقباض فيصبح منقبض المزاج، أو بالعكس يغلب عليه الانبساط والسهولة في الطبع فيكون منبسط المزاج، أو يكون خمولاً بطبعه قليل النشاط، لا يأبه بشيء، أو يكون جم النشاط لا يكل ولا يمل، وما إلى ذلك من شدة أو ضعف وسرعة أو بقاء ومرح أو كآبة، وهذه كلها أحوال مردها البدن.

الأمزجة عند القدماء:

وقد لاحظ القدماء من أيام جالينوس هذه الظاهرة فقدروا أن في البدن أخلاطاً أربعة وهي: الدم والبلغم والمررة الصفراء، والمررة السوداء — لها

أثر مباشر في توجيه سلوك الإنسان والحالات النفسية والعقلية والوجدانية التي تطرأ عليه ، فإذا تغلبت إحداها جعلت صاحبها ذا مزاج مشابه لها ، فتكون الأمزجة في رأيهم أربعة وهي : المزاج الدموي والصفراوي والبلغمي والسوداوي ، ووضعوا لصاحب كل مزاج علامات يعرف بها ، ومميزات يتميز بها عن غيره من أصحاب الأمزجة الأخرى .

فيقول الفارابي : « حقيقة المزاج هو تغير الكيفيات الأربع عن حالها ، حكمة الباري تعالى في الغاية ، لأنه خلق الأصول وأظهر منها الأمزجة المختلفة ، وخص كل مزاج بنوع من الأنواع ، وجعل كل مزاج كان أبعد عن الاعتدال سبب كل نوع كان أبعد عن السكّان (٥٨) .

ورتبوها وفاضلوا بينها وربطوا بينها وبين عناصر الكون ، وهي : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب — أى الأرض — وتكلموا في ذلك كلاماً طويلاً معقداً ، نلخص أهم ما فيه فيما يأتى :

« يوجد في البدن أخلاط أربعة ، وهي : الدم ، والبلغم ، والمرّة الصفراء ، والمرّة السوداء — أى الدم الفاسد — فالأول مصدره القلب ، والثاني الصدر . والثالث المرارة ، والرابع الكبد ، وهي موجودة في البطن بالطبع لا بالعرض ، أى إنها مواد أصلية في الجسم ، وكل منها مناسب في مزاجه لعنصر من العناصر الأرضية ، وهي : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، فالدم مناسب في مزاجه لمزاج الهواء وهو الحرارة والرطوبة ، ودليل حرارته سخان بदन الحى ، ودليل رطوبته سهولة تشكّله وترطيبه بدن الحى . والبلغم مناسب في مزاجه لمزاج الماء ، وهي البرودة والرطوبة . ودليله ما يشاهد حساً عند خروجه من البدن . والمرّة الصفراء مناسبة في مزاجها لمزاج النار ، وهي الحرارة واليبوسة ودليل ذلك ما راها تفعله في

جسم الحى من إسخانها الأعضاء الباردة وتبييسها الأعضاء الرطبة . والمرة السوداء مناسبة فى مزاجها لمزاج الأرض وهى البرودة واليبوسة ، وبكل واحد من هذه الأخلاط الأربعة مرتبة ونظام . فالخلط البلغمى فى أول مرتبة ، والدم ثانية ، والمرة الصفراء ثالثة ، وال سوداء فى المرتبة الرابعة ، وهذه كلها تختلط وعند اختلاطها يعضام بعضها عند تقسيمها أجزاء صغاراً وتفعل كصفات بعضها فى بعض ، وينفعل بعضها من بعض ، وعلى هذا الوجه يكون منها المزاج .

ولما كانت الأخلاط أربعة ، والأبدان كثيرة الألوان والصفات دل ذلك على أن اختلافها هو من قبل اختلاف مقادير أخلاطها ، فإذا اعتدلت وتكافأت كلها حتى لا يزيد أحدها عن الآخر ولا ينقص كان صاحبها ذا مزاج معتدل ، وإن زاد واحد منها على الآخر فيكون صاحبه دمويّاً أو بلغميّاً أو صفراويّاً أو سوداويّاً ، وقد يأتلف إثنان إن كانا قابليين للائتلاف ويغلبان الآخرين فيكون مزاج صاحبهما وسطاً بين الإثنين ، فالحرارة واليبوسة يجتمعان معاً ، أما الحرارة والبرودة فلا (٥٩) .

وعلى هذا تكون الأمزجة أربعة أصلية وأربعة فرعية وواحد معتدل أى فى الجملة تسعة ، وقد بلغ من تقديرهم لهذه الأخلاط أن قرر جالينوس بأن النفس ذاتها تابعة لمزاج البدن فتكون عاقلة أو سبعية أو غضبية أو شهوانية وذكروا غير هذا كلاماً كثيراً لا محل للإفاضة فيه .

أخطاء القدماء : وقد رفض المحدثون هذا الرأى بعد أن ظل معمولاً به طوال القرون من جالينوس فى الطب والفراسة ، وقالوا بفساده لاعتبارات كثيرة نلخصها فيما يلى :

١ - إن كثيراً من الصفات والمميزات التى نسبوها للأمزجة البدنية

تتبع في الواقع أموراً نفسية ، أو تتصل بعواطف ، أو تميز أنواع الشخصية فالتفاؤل والمرح الذين وصفوا بهما صاحب المزاج الدموي هما من صفات الشخصية المنبسطة أو الممتدة .

٢ — إن الأعضاء التي نسبوا لها الأخلاق ليست هي وحدها المسيطرة على البدن بل هي في الواقع في الرتبة الثانية بالنسبة للغدد والجهاز العصبي وأن الأخلاط ليست هي وحدها أهم إفرازات البدن التي تؤثر على سائر الأعضاء فهناك ما هو أقوى منها أثراً وأشد فعلاً ، بل وفيها هي نفسها ، ففي البدن جهاز عصبي دقيق الصنع يسيطر على سائر الأعضاء ويقوم بالمعقد من الأعمال . يلي آلاف المؤثرات الخارجية والداخلية ويؤثر أثراً مباشراً في الإدراك والوجدان والزروع ، فإن انتظم انتظمت الأعمال واعتدل المزاج ، وإن اختل اختلت الأعمال وفسد المزاج ، وفيه غدد لها إفرازات تؤثر على الجهاز العصبي ذاته أثراً ظاهراً بارزاً في سلوك الإنسان كتأثير المخدرات والمنبهات . فالغدة الدرقية الموجودة بالعنق إذا نقص إفرازها عن الحد الطبيعي أصبح الشخص بطيئاً متسكناً في كل تصرفاته بليداً في ذهنه وإن كان طفلاً تناقص نموه العقلي والبدني وإذا لم يعالج يظل طول عمره أبلهاً ناقص العقل ، أما إذا زاد الإفراز في الدم ازداد نشاط الإنسان وزيادة تجعل الشخص قلقاً مضطرباً سريع التهيج ، والغدة النخامية في أسفل المخ إذا ازداد إفرازها عند الشباب أصبح عملاقاً وإذا نقص صار قزماً ، والغدة فوق الكلويتين لها أثر مباشر في الانفعالات والحالات الوجدانية ، وتهيج الكبد فيدفع بالسكر إلى الدم فيزداد الاحتراق ، ومن ثم النشاط والتهيج العام والقدرة على الاستمرار في العمل وهي كذلك تنشط القلب والرئتين ، وقد ينحدر الإنسان في حالة زيادة إفراز الدرقية إلى الجنون

أو في حالة النقص للعتة .

٣ — وبعض الأمراض الطارئة لها أثر كبير على المزاج ، فالسلس عادة يجعل صاحبه متفائلاً ، والسكر متبرماً قلقاً .

٤ — وهناك عوامل أخرى هامة تؤثر في المزاج كالتعب . فالناس يختلفون اختلافاً كبيراً من حيث قابليتهم للتعب ومقاومتهم له والاستمرار في العمل مع وجوده ، فقد يبدأ شخصان عملهما في وقت واحد وهما في غاية النشاط فتظهر أعراض التعب على أحدهما بعد فترة وجيزة فينحط إنتاجه وتكثر أخطاؤه ، وينقبض ويرتبك في حين يستمر الآخر مدة طويلة وهو منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، أو يشعر أحدهما بالتعب قبل أن يحل به ولا يشعر به الآخر إلا بعد أن يحل ويتملكه .

٥ — فالمزاج إذاً ليس مجرد نتيجة تغلب واحد من الأخطاط وإنما هو مظاهر السلوك والحالات النفسية الناتجة من مجموع الآثار الكيميائية للتفاعلات والعمليات الحيوية التي تحدث في البدن فتؤثر على المخ والأعصاب .

وهو إذن نتيجة عوامل طبيعية موروثة ، أو بدنية طارئة كأمراض الغدد ليس للإرادة عليها سبيل أو سلطان ، وبهذا يختلف عن العواطف والشخصية والخلق التي هي استعدادات أو سمات مكتسبة ، وإن كانت الظروف الطارئة من الصحة والمرض ، وأسلوب المعيشة والجو والمناخ والتغذية كلها لها أثرها المباشر على المزاج ،

آراء المحدثين : لم يقتنع المحدثون إذن بالمذهب القديم ولكنهم لم يصلوا إلى أحدث الآراء طفرة وإنما في خطوات تناولت كل منهما سابقتهما بشيء من التعديل حتى انتهوا إليه وما كشفه لهم العلم الحديث عن خواص الغدد

والجهاز العصبى .

وكان أول ما فعلوه أن تناولوا مظاهر سلوك الإنسان وحالاته النفسية من ناحية القوة والضعف ، أو النشاط والخمول ، ثم السرعة والبطء تمثلاً بحركة القلب والنبض ، فوجدوا أن المزاج الدموى يجتمع بين القوة والبطء فيكون صاحبه قوياً نشيطاً له قدرة على الاستمرار فى العمل وتدبر الأمور ، وإنما فى هواده ولين ، فينفعل مثلاً انفعالا شديداً ولكنه لا يتصرف بسرعة ولا يتهور ، وصاحب المزاج الصفراوى قوى وسريع فعنده نشاط الأول وجلده ولكنه سريع أهوج لا يتدبر ولا يتروى ، والسوداوى ضعيف وسريع ، فيعمل عمله مثلاً بسرعة ولكنه يمله كذلك بسرعة ويتعب ، أو يكون سريع الغضب ولكنه لا يقوى على مقاتلة من أغضبه ، أما الباغمى فضعيف وبطئ . (٦٠) .

٢ - ولكن هذا التقسيم أيضاً يغفل الناحية الوجدانية ، وعلى هذا قد يجمع المزاج الواحد على التقسيم القديم بين ناحيتين وجدانيتين أو شخصيتين متناقضتين مادام أساس التقسيم هو النشاط ، فالشخصيتان المتفائلة والمتشائمة مثلاً يدخلان فى المزاج الدموى وهذا غير معقول .

فيجب أن يجمع التقسيم بين النشاط وله ناحيتان : الإيجابية والسلبية ، أو القوة والضعف ، والناحية الوجدانية ولها ثلاث حالات : الارتياح أو السرور ، وعدم الارتياح ، والحالة الوسطى ، وينتج من هذا التقسيم ستة أنواع من الأمزجة (٦١) .

المزاج الدموى : يكون صاحبه قوياً وشاعراً بالارتياح .

» الصفراوى : يكون صاحبه قوياً وشاعراً بعدم الارتياح .

» الزئبقى : يكون صاحبه قوياً ولكن حالته الوجدانية وسطى .

- المزاج الضحوك : يكون صاحبه ضعيفاً وشاعراً بالارتياح .
 » السوداوى : يكون صاحبه ضعيفاً وشاعراً بعدم الارتياح .
 » البلغمى : يكون صاحبه ضعيفاً وحالته الوجدانية وسطى .
 ومن صفات (الأول) الائتناس بالغير ، وطيبة النفس ، والتودد والإخلاص .
 » (الثانى) الخجل ، ودقة الإحساس ، وسرعة التهيج العصبى .
 » (الثالث) الهدوء والبساطة والقناعة مع سرعة التألم والانقباض .
 » (الرابع) المرح ، وحب النكتة ، والدعابة ، والتسرع .
 » (الخامس) الهرب من الجماعة والهدوء والتحفظ والوقار والشذوذ .
 » (السادس) المرونة ، والطيبة ، والأمانة ، وعدم التأثر ،
 وبلاذة الذهن .

٣ - ويرى فريق آخر من العلماء أن الغرائز باعتبارها مصادر السلوك الإنسانى وأقوى الدوافع لها بالضرورة أثر مباشر فى تكوين المزاج فإذا تطرفت غريزة من الغرائز وقويت على حساب الغرائز الأخرى ، أو كان من طبيعة الظروف المحيطة بالإنسان أن تثار فيه غريزة ما استشارة متكررة مستمرة ، فإنها تكسبه مزاجاً خاصاً مصطبغاً بهذه الغريزة (١٠٧) .
 فالخوف مثلاً إذا ازداد وتكررت المواقف التى تثيره فى حياة الإنسان جعلته جباناً ، وغريزة المقاتلة بالمثل تجعل الإنسان مشاكساً معتدياً وغريزة التسلط تدفعه إلى التعاطم والتسامى ، والخضوع الى المسالمة والاستكانة ، والغريزة الوالدية أو الحنو إلى الإيثار ، والتملك إلى البخل والناس يشتركون فى جميع الغرائز كيفاً ، ويختلفون كمّاً ومقداراً ، ومن ثم يختلفون مزاجاً .
 وقد يقوى فى الإنسان غريزتان أو أكثر فيصبح ذا مزاج مركب من

مظاهر هاتين الغريزتين أو الغرائز . فالاعتماد والاضطهاد والاستبداد ينتج من غريزتي السيطرة والمقاتلة . وكثيراً ما يحدث أن يشعر الإنسان بدافع غريزي يتمسكه ولا سلطان له عليه ويخشى أن يكشفه هذا الدافع للناس في ثوب لا يرضاه فيظهر بثوب آخر هو من نسيج الغريزة ذاتها ولكن في لون آخر مقبول ، أو يكون مظهره مناقضاً لحقيقة ما يشعر به تماماً . فقد تكون الإثارة والاستبداد تعويضاً عن شعور بالنقص والخضوع ، وهكذا تؤدي الغريزة إن تسلطت وقويت إلى مزاج من طبيعتها ، أو مزاج آخر مناقض لها يقوم بعملية التعويض (٦٢) .

فغريزة الهرب تكتسب الإنسان مزاج الجبن أو التهور ، والاستطلاع يؤدي للمناداة بالتجديد والتطرف أو المحافظة على التقاليد ، والمقاتلة إلى الفتح والحروب والاعتماد أو المسالمة ، والتجمع إلى الاندماج في الجماعة أو الخروج عنها ، وبالمثل تنتج الإثارة من قوة غريزة السيطرة المباشرة أو تكون تعويضاً عن غريزة الخضوع ، والشجاعة تنتج من المقاتلة والتسلط أو تكون رد فعل مباشر للخوف ، والمسالمة والدعوة للسلام من الخوف أو من قمع غريزة المقاتلة . ويتميز المزاج الناتج عن التعويض وإخفاء ما يناقضه عن المزاج الناتج عن الدافع الغريزي ذاته ، بأن الأول يكون دائماً متطرفاً . فالشجاعة الناتجة عن تعويض الخوف تكون دائماً تهوراً واندفاعاً والإثارة الناتجة عن تعويض الشعور بالنقص تتطرف إلى جنون العظمة والمسالمة الناتجة عن تعويض المقاتلة هي مسالمة مسلحة ، أو دعوة لقمع الحرب بالحرب ، ومنع التسليح بالتسليح .

٤ - وأخيراً كشف العلم الحديث عن أثر إفرازات الغدد التي ذكرناها من قبل ووضع العلماء تقاسيم جديدة للأمزجة على أساس هذه الغدد ولكن

البحث لم يكتمل بعد ، وأثرها أكثر ظهوراً في الأمزجة الشاذة المتطرفة ولذلك سنتحدث عن هذا في مبحث الشذوذ .

أثر المزاج :

وليس من شك في أن للمزاج أثراً كبيراً في نواحي حياة الإنسان الوجدانية والنزوعية ، وقد يطغى هذا الأثر على العواطف والخلق والشخصية فيضعفها أو يقويها ، أو ينحرف بها عن طريقها ، فيزور المحب عن حبيبها وهو منقبض ، وقد يعدل عن أخذ الثأر من عدوه إن كان منبسطاً ، وقد يقعد به خموله عن تحقيق أمور هو راغب فيها ، أو يدفعه نشاطه الزائد إلى التهور وهو يريد إلا أن يكون معتدلاً محترماً لذاته ، وقد يسيطر الإنسان على عواطفه وخلقه ويكيفها إلى حد كبير مادامت مكتسبة في حين أنه لا يستطيع أن يسيطر على مزاجه مادامت عوامله التي يتكون منها كلها طبيعية أو بدنية أو موروثية .

والمزاج هو أصل الكثير من الفوارق العقلية والنفسية الظاهرة بين الأفراد والشعوب والجماعات والعوامل الهامة التي تكون الخلق والسلوك ، فصاحب المزاج السوداوى أو البلغمى لا يمكن أن يقوم بعمل جليل ، وصاحب المزاج الضحوك لا يمكن أن يستمر في عمل مرهق أو يصمد لنكبات الزمان ، وفيه قال الرسول : « ويل للذى يحدث بكذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ويل له » وصاحب المزاج الصفراوى لا يمكن أن يتسامح أو يصفح عن المسيء ، والمزاج الزئبقى لا يثبت على رأى . وكذلك الأمم المتفوقة المستعمرة يغلب فيها المزاج الدموى ، والأمم التي تشتهر بالفنون المزاج الصفراوى ، والشعوب المستهترية يغلب فيها المزاج الضحوك ، والأمم السوداء يكثر فيها المزاج البلغمى (٦٣) .

الباب السابع

الشخصية

تعريف الشخصية :

تتدخل في تكوين سلوك الإنسان وخلقته ومن ثم شخصيته عوامل كثيرة منها ذكرنا منها نشأته وبيئته وأثرها في غرائزه وانفعالاته وعواطفه ثم مزاجه وعقليته . ولما كانت ظروف الناس مختلفة واستعداداتهم الطبيعية متباينة — كما أوقوه وإن اتفقت كيفاً ونوعاً — لزم أن يكون للناس شخصيات متعددة بتعدد هذه العوامل ، فقد يتميز واحد من الناس بناحية خاصة تطبع أعماله وتصرفاته ومعظم أنواع سلوكه ومعاملاته مع الناس بطابع خاص يصبح ميزة له تعرف فيه أو صفة يوصف بها ، في حين يتميز شخص آخر من ناحية ثانية فيوصف وصفاً آخر . وقد يتغلب عامل من العوامل أو نوع من أنواع الاستعدادات على الأنواع الأخرى ويطنى عليها بحيث إذا أردنا أن نصف صاحبه أو نصوره أو نتمثله تحدثنا عن هذه الناحية وحدها ولم نذكر شيئاً عن النواحي الأخرى كأن لا وجود لها . فنقول عن فلان : إنه جبار العقلية ، أو واسع الاطلاع ، أو مستبد برأيه ، أو بطيء التفكير ، أو سريع القلب في الرأي ، أو حاضر البديهة ، وما إلى ذلك من الصفات التي تدل على نوع خاص من العقليات . وتتكلم عن فلان من الناحية الوجدانية فنصفه بأنه أناني محب لذاته ، أو سريع الغضب ، أو شديد الإخلاص لأصدقائه ، أو متميز في حبه ، أو محب لعائلته ، أو متعصب لدينه ومبادئه ، وهذه كلها صور لأشخاص تغلب فيهم الناحية الوجدانية .

أو نتناول خلقه فنقول عنه : قويم الخلق ، أو متساهل في عاداته ، أو لاخلاق له . أو عن طبعه ومزاجه فنقول : إنه حاد الطبع ، أو عصبي المزاج ، أو كثير المرح . وقد يصور لنا السكاتب أو الأديب أو الشاعر أو المصور والمثال شخصاً ما في صورة تبرز الناحية التي استهوته في طبيعته وتكوينه مجسمة حية واضحة بحيث يصبح هذا الشخص في نظرنا رمزاً أو أنموذجاً لأنواع خاص من أنواع الشخصيات ، يمثل شخصية الشاعر أو المحسن أو الزاهد أو رجل الأعمال أو الفيلسوف .

ولكن جميع هذه الصفات والصور إن عبرت عن ناحية أو بعض نواح من تكوين الإنسان فإنها تقصر عن أن تعطينا صورة كاملة صحيحة لنواحي الشخص الذي نتحدث عنه وأسباب سلوكه واستعداداته كما يعرفها أصدقاؤه الذين خالطوه في مختلف ظروفه ولمسوا فيه كل نواحيه ، وعرفوا منه ومن أموره وتصرفاته ما لا يعرفه الأشخاص الذين خالطوه عرضاً وتأثروا بناحية خاصة فيه . فالكلام عن عقلية الإنسان يعطينا جزءاً واحداً بسيطاً من صورته العامة ، والكلام من مزاجه يعطينا جزءاً آخر ، والاقتصار على جزء واحد لا يمكن أن يمثل لنا الصورة العامة التي هي شخصيته الحقة ، وإن كانت كل هذه النواحي متداخلة في بعضها وكل منها يؤثر في الآخر فشخصية الإنسان ليست مجرد عقلية أو مزاجه أو خلقه أو عواطفه أو ناحية خاصة من نواحي تكوينه ، أو ميزة بارزة يتميز بها عن غيره من الناس وإنما هي وحدة مركبة من كل هذه النواحي ونتيجة لتداخلها وتفاعلها ، وبعبارة أخرى هي محصلة لعدة قوى ، وبقدر ما تكون عليه هذه القوى من قوة أو ضعف تكون الشخصية في مجموعها قوية أو ضعيفة .

وبالمثل إذا اتزنت هذه العوامل أنتجت شخصية متزنة معتدلة في معظم

نواحيها وإذا انحرفت عن طريقها الطبيعي أدت إلى شخصية منحرفة أو شاذة ، فصاحب الشخصية القوية الجبارة أو البارزة يكون متفوقاً في ذكائه وعقليته موفور النشاط ذا جلد على العمل ، موجهاً وجدانه ووزوعه للأمور الجدية أو بعبارة أخرى ذا شخصية متفوقة متسلطة على وجه العموم ، وصاحب الشخصية المرحية ينظر إلى الحياة ويقلبها من ناحيتها المرحية ، فيفكر في الأمور البهيجة ويستطيب النكتة ويصطنعها ، وينظر إلى الحاضر والمستقبل نظرة المستبشر المتفائل ويجب الأمور السلية الهادئة ، ويتذوق طعم الفن والجمال وكل ما يدخل السرور على قلبه . أما الممثل الكوميدي فلا يصح أن يحكم عليه بأنه ذو شخصية مريحة لمجرد ظهوره أمام الناس بحكم دوره أو مهنته بمظهر المرح والسرور ، فقد يكون في حياته الخاصة بائساً ساخطاً على الدنيا والناس متبرماً بالحياة .

عوامل الشخصية : والعوامل التي تؤثر في حياة الإنسان وتعمل على تكوين شخصيته متعددة ، منها ما هو ثابت أصيل كالغرائز والذكاء ، ومنها ما هو مكتسب كالعواطف وليكنها مع هذا نستطيع أن نردها إلى سبعة أصول رئيسية ، وهي : العقلية ، والوجدان ، والمزاج ، والخلق ، والبدن ، والمهنة ، والبيئة (٦٤) .

١ - العقلية : تقوم عقلية الإنسان على أساسين ، وهما : الذكاء أو القدرة على التصرف في المشاكل والمواقف الجديدة بأقصر الطرق وأقل الجهود ، (٦٥) .

ثم العمليات العقلية التي تساعد الإنسان على اكتساب الخبرة والمعلومات من ربط وتذكر وإدراك وتفكير وتخيل ، وهذه كلها استعدادات يرثها الشخص أو عمليات يظهر معظمها في الطفولة ثم تنمو

وتتدرج ، ولكن مجرد وجودها وطبيعتها لا يضمن نموها على النحو المنتج
المفيد ، فلا بد لإظهارها والانتفاع منها من التعليم المنظم ، سواء أكان
الغرض منه إتقان حرفة أو صناعة في الحقل أو المصنع أو السوق ، أو
كسب المعلومات وتحصيل العلوم في المدرسة أو المعهد ، فالتعليم وحده
يكشف هذه الاستعدادات وينمّيها ويسير بها في طريق صالح منتج ويظهر
أثرها في تكوين شخصية الإنسان ، فهناك أميون كثيرون لديهم ذكاء طبعي
موفور لا ينتفعون منه مادامت الظروف الصالحة لاتهم ، على أن التعليم
وحده لا يكفي لتكوين شخصية عامة قوية إلا إذاكمل بالتشقيف فقد يتعلم
الإنسان العلوم المدرسية ويتدرج في مراحل التعليم حتى يصل فيه إلى أرقى
الدرجات ويصبح أستاذاً أو إخصائياً في علم أو فن ويكون مع هذا كله
بعيداً كل البعد عن الحياة ذاتها ناقص التكوين بحيث يحسبه الناس رجلاً
عادياً ، فهناك أنواع من المعلومات العامة والفنون ليس للمدرسة نصيب
في تكوينها ولا يصل إليها الإنسان بغير الاطلاع الواسع والخبرة
والاحتكاك بالناس وليست علوم المدرسة غاية في ذاتها فإذا انتهى الإنسان
في تحصيلها كان مثقفاً وإنما هي وسائل لتنظيم الفكر ومفتاح لباب الحياة ،
حتى قيل أن الإنسان ليجد يتعلم العلم الصحيح بعد أن ينتهي منه في المدرسة ،
فطالب الأزهر مثلاً المتخصص في العلوم الدينية لا يسميه الناس مثقفاً إلا
إذا ألم بطرف من الأدب والفن واتصل بأمور الحياة العامة وعرف ما يجري
في العالم من الأحداث الهامة الخارجة عن دائرة الدين وعلومه وعرف لغة
أخرى غير لغته وتتبع النهضة العلمية الحديثة وتيار الفكر الغربي والشرقي
بعض الشيء على مثال مايرمي إليه الأزهر الآن في عهد الإصلاح الحاضر ،
وقد تنمو القوى كل في طريقها مستقلة عن غيرها لا يربطها رابط وينتهي

الامر بالإنسان أن تصبح معلوماته تتفأ غير منظمة ولا منتجة ويصبح العقل مخزناً كبيراً به غرف غير متصلة إذا دخل الإنسان غرفة الأدب فيه نسي العلوم ، في حين أن الإنسان إذا ربط معلومات المادة الواحدة بعضها ببعض الآخر ثم ربط هذه المادة بما يتصل بها من مواد في مجموعة خاصة — كأن يربط التاريخ بالجغرافية والسياسة والمعلومات المدنية — وتكونت في ذهنه مجموعات منتظمة واحدة للعلوم الفلسفية وأخرى للدينية وثالثة للعلمية وأخيراً يربط هذه المجموعات كلها بعضها ببعض فتصبح مجموعة واحدة كبرى أو دولة علمية يشد بعضها أزر بعض ويستفيد كل نوع فيها من باقي الفروع بحيث إذا تكلم الإنسان في الدين عرج على الفلسفة والمنطق واستعان بالتاريخ للاستقصاء والمقابلة والعلوم للبحث والتحصيل وأصبحت معلوماته كلها تدور حول محور واحد يتدرج منه إلى الغرض الأسمى من التعليم والتثقيف وهو دراسة طرق التفكير الصحيحة ومناهج البحث ومعالجة الأمور والمظر فيها نظراً سديداً وكسب العادات العقلية المنظمة ، وبذلك تصبح عقليته أداة عامة مفيدة توجه نزعاته وعواطفه وميوله نحو الأغراض السامية التي يسعى لتحقيقها في الحياة ، وهذا هو الطريق الذي سلكه السلف الصالح من الأئمة والمجاهدين والفلاسفة والعلماء وبعض البارزين من أئمة هذا العصر ، فقد حرصوا على أن يتناولوا كل ما كان لديهم وقتهم من علوم وفنون وأقبلوا يدرسونها ويمحصونها ويستوعبونها وكتبوا فيها الرسائل وصنفوا فيها الكتب وكانت لهم أكبر عون على التفسير والتفقه في الدين والله تعالى يقول : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) والعلم أساس التقوى ، فهي كما يقول الإمام المراغي : « تشمل إقصاء الذنوب واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال والسعادة حسبما

ترشد إليه السنن السكونية وذلك يتوقف على علم سنن الله في الإنسان منفرداً ومجتمعاً ، وعلى معرفة ما ينبغي أن يفعل وينبغي أن يترك (١٠٨) .

وإذا كان الزمن قد تغير وأصبح من المستحيل على الإنسان مهما امتد أجله واتسع عقله أن يلم بما في العالم الآن من علوم وفنون ، بل أصبح لازماً أن يتخصص العالم في فرع واحد من المادة أو يقضى طول عمره في استقصاء جزء واحد من هذا الفرع فلا أقل من أن يتخير كل صاحب مهنة أو صناعة ما يتصل بها من علوم وفنون فيدرسها دراسة مستفيضة ثم يلم بطرف بسيط ولو بالنتائج العامة دون التفاصيل في العلوم الأخرى أو الفنون أو المعلومات العامة التي لا غنى للرجل المثقف عن الإلمام بها وإلا عاش الرجل غريباً بين الناس لا يشاركونهم حديثاً وموضوعاً ، أو يدلى برأى في شيء غير ما تخصص فيه ، أو يظل يترقب الفرصة في المجتمعات حتى تظهر مناسبة يظهر منها ما يعلمه وقد لا تحين

فالعالم يمثل العمق في الدرس والتحصيل ، والثقافة تمثل سعة الاطلاع ، وقد اتجهت أنظمة التربية الحديثة إلى التثقيف العام أكثر منها إلى التعمق في طائفة قليلة من العلوم المدرسية ، لأن الثقافة تبنى الشخصية وتظهرها في المجتمع العام ، ولعل هذا العصر يمتاز أكثر من سواه بنزعة لتبسيط العلم وتعميمه وجعله في متناول كل إنسان وإخراج طائفة متنوعة من الموسوعات وكتب المعلومات العامة التي يجب أن يطالعها كل إنسان ، واصطناع كافة الوسائل لنشر الثقافة ، من صحافة وخيالة ومبرح ومتاحف ومعارض ورحلات . وقد غنى العلماء في الغرب بدراسة نواحي المعلومات العامة التي يجب أن يلم كل إنسان بطرف منها ، ووضعوا في ضوء هذه الدراسة مقاييس يستطيع أن يعرف الإنسان منه نسبة ثقافته العامة إلى ما يجب

أن يكون (١٠٩) .

وقد وضعت المقياس التالى مناسباً للمصريين (١١٠) .

ومقياساً آخر مناسباً للعراقيين (١١١) .

نجد فيما يلى جملاً ناقصة ، وبجوار كل جملة أربع كلمات منفردة واحدة فقط منها هى التى تكمل هذه الجملة . فعليك أن تقرأ كل جملة على حدة . مبتدئاً من رقم (١) وتضع خطأ تحت الكلمة التى ترى أنها تكمل المعنى ، كما فى المثال الآتى :

الناس تنظر ب : الأعين ، الآذان ، الأنف ، الفم .

والآن أبدأ

١ — مدينة القاهرة بناها : رمسيس . عمرو بن العاص . جوهر الصقلي . محمد على باشا .

٢ — نلعب الشطرنج ب : المضارب . الورق . قطع الخشب . النرد .

٣ — المحلة الكبرى مشهورة : بالسيارات . السجاد . المنسوجات . العاج .

٤ — الدندراوى نوع من : الخيل . الدجاج الماشية . الجرانيت .

٥ — تصنع الفخار شركة : الدفراوى سرناجه . سباتس . الحوامدية .

٦ — توجد المدرسة البحرية : بالقاهرة . الاسكندرية . بور سعيد .

دمياط .

٧ — الكسار : ممثل . مؤلف . لاعب كرة . مغنى .

٨ — البشاروش نوع من : الخيل . الماعز . الغنم . الطيور .

- ٩ — هدى شعر اوى : زعيمة نسوية . مغنية . مثلة . مؤلفة .
- ١٠ — الخرشوف نوع من : الثعابين . السمك . السحالي . الخضر .
- ١١ — يوجد المرجان فى : المناجم . الفيلة . الصخور . البحار .
- ١٢ — مختار : شاعر . مصور . موسيقى . مثال .
- ١٣ — الحرباء نوع من : الزواحف . السمك . الطيور . الحشرات .
- ١٤ — لون الزمرد : أحمر . أزرق . أخضر . أصفر .
- ١٥ — يصنع الفريك من : القمح . الدريس . القرطم . الرز .
- ١٦ — سانلايت : دواء مجهز . سائل مطهر . صابون : مسحوق أسنان .
- ١٧ — يعلن دائماً بصورة فارس عربى عن : مشروب . سيجار . ملابس . دواء .
- ١٨ — الزنزلخت : آلة . طعام . شجرة . قماش .
- ١٩ — بمباى فى : الصين . الفرس . الهند . اليابان .
- ٢٠ — الجشتتير : آلة كتابة . آلة حاسبة . آلة طباعة . راديو .
- ٢١ — يوجد البنكرياس فى : الرأس . البطن . الكتف . الرقبة .
- ٢٢ — الشيفوت اسم : نسيج . مشروب . دواء . طعام .
- ٢٣ — التبيد اصطلاح : طبي . دينى . قانونى . بيداجوجى .
- ٢٤ — تاريخ معركة التل الكبير : ١٨١٣ ، ١٨٥٣ ، ١٨٨٢ ، ١٨١٢
- ٢٥ — تستعمل الطنبورة فى : الموسيقى . الاختزال . التجليد . الطباعة :
- ٢٦ — تستخرج التربنتينا من : البترول . المناجم . الجلود . الأشجار .
- ٢٧ — أقدام الزولو : إثنان . أربعة . ستة . ثمانية .
- ٢٨ — البرونج : بندقية . مدفع . مسدس . سيف .
- ٢٩ — مؤلف كتاب الأيام : المنفلوطى . أحمد أمين . طه حسين . هيكل .

- ٣٠ — ديوس اصطلاح في : كرة السلة . كرة القدم . التنس . الهوكي .
 ٣١ — الأمبير يقيس : الريح . الكهرباء . قوة الماء . سقوط المطر .
 ٣٢ — هليو تروب اسم : مشروب . لون . نسيج ، طعام .
 ٣٣ — البازلت : نبات . معدني . حجر . سائل .
 ٣٤ — قيس شخصية في رواية : عطيل . عائدة . مجنون ليلى . هملت .
 ٣٥ — القصابية تستعمل في : صيد السمك . صيد الطيور . الزراعة .
 السيارات .

- ٣٦ — سيارة فورد تصنع في : ألمانيا . فرنسا ، بلجيكا . أمريكا .
 ٣٧ — انشتاين عالم في : الكيمياء . الرياضة . الجغرافيا . الجيولوجيا .
 ٣٨ — من حلفاء ألمانيا في الحرب الماضية : اليابان . بلغاريا . هولندا .
 الأرجنتين .

- ٣٩ — مطار أوماظه يقع في : السويس . حلوان . مصر الجديدة . الدخيلة
 ٤٠ — مترنيخ كان : ألمانيا . إنجليزياً . فرنسياً . نمساوياً .

الإجابات الصحيحة هي : جوهر ، قطع الخشب ، المنسوجات ،
 الدجاج ، سرناجة ، الإسكندرية ، مثل ، الطيور ، زعيمة نسوية ، الخضر ،
 البحار ، مثال ، الزواحف ، أخضر ، القمح ، صابون ، سجاير ، شجرة ،
 الهند ، آلة طباعة ، البطن ، نسيج ، قانوني ، ١٨٨٢ . الموسيقى ، الأشجار ،
 اثنان ، المسدس ، طه حسين ، التنس الكهربائي ، لون ، حجر ، مجنون ليلى ،
 الزراعة ، أمريكا ، الرياضة ، بلغاريا ، مصر الجديدة . نمساوياً .
 اضرب عدد الإجابات الصحيحة في $\frac{1}{2}$ يكون الناتج النسبة المئوية
 لثقافات العامة .

ودرجة الثقافة هي من ١٠٠ - ٧٦ مثقف جداً و ٧٥ - ٥٩ فوق المتوسط و ٥٨ - ٤٢ متوسط أو عادى و ٤١ - ٢٥ دون المتوسط و ٢٤ إلى صفر غير مثقف .

ويستطيع الإنسان أن يعرف نواحي النقص في ثقافته فيكملها ، من دراسة الأنواع التى أخطأ فى الإجابة عنها أو أهملها .

وليس معنى الثقافة أن يتشدد أمام الناس ببعض كلمات أو جمل بلغة أجنبية ليوهم الناس أنه عالم بها ، أو يردد بعض نظريات العلم الحديثة . أو يسرد أسماء دون أن يفهم مايقول ليوهم الناس أنه متابع لأحدث مايجد فى العلم ، فإن هذا يكشف جهله ويظهر شخصيته ضحلة سطحية لاعمق فيها ولا دسم .

أو يجادل فى أمر عديم الجدوى ، أو يناقش مناقشة بيزنطية (١١٤) . ويشير المراغى إلى هذا فى موضوع الجدل فى القبلة فيقول : « مثل هذا ليس له شأن العقلاء ، لأنه جدل خارج عن دائرة البر والخير ، إذ لا تفاضل فى الأمكنة ، (١١٣) . والله أعلم وفوق كل ذى علم عليم .

(٢) الوجدان : وقد بينا كيف ينظم الإنسان انفعالاته فى عواطف ثم ينظم عواطفه كلها حول عاطفة واحدة حتى يجعل من استعداداته الوجدانية كلها قوة واحدة فعالة ، وبغير هذا التنظيم لا يمكن أن يكون الإنسان ذا عاطفة قوية أو مبدأ ثابت أو خلق قويم ، فالعاطفة الواحدة هى فى ذاتها قوة لا يستهان بها ولكنها إذا تسلطت على العواطف الأخرى أخضعت الإنسان لسلطانها ، وقد يتنكب السبل وراء إشباعها حتى ليخرج على كل الاعتبارات والقواعد المرعية والتقاليد ، وقد يعتمد إلى الغش

والخداع وربما يرتكب الجرائم ولا يكون ذلك في نظره رذيلة مادامت الغاية التي يسعى إليها في نظره مقبولة .

فقد يقتل الإنسان ويسرق ليعول أولاده ، أو يغش في الامتحان ليحصل على الجائزة ، والذي يستبد به حبه لذاته تتملكه رغبة ملحة في التماس الشهرة والوصول إلى المركز الكبير من غير أن يدرك بالتحديد الغرض السامى الذى يمكنه هذا المركز من تحقيقه لمصلحته ومصلحة المجتمع ، فيختط لنفسه طريقاً في الحياة يرى أنه كفيل بإشباع شهوته ، ويتمسك بأهداب كل ما يوصله لغايته ، ويتهمز الظروف بالخير والشر ، ويقدر قيم الأشياء والناس والمواقف سلباً أو إيجاباً بقدر اتصالها بهذه الرغبة . وقد يظهر بمظهر الشخصية البارزة والخلق الجبار بحكم ما يصل إليه من مركز ولكنه مع هذا بعيد كل البعد عن الشخصية المحترمة القوية ، فهو لا يتورع ولا يرحم ولا يشفق على منافسيه الضعفاء أو المتمسكين بكرامتهم ويتخطى كل ما يعوقه بقسوة ، ويتمسح بالعظام ويريق دماء وجهه ، ويتملق من في يده مفتاح رقيه (٦٦) .

وبعض الشعوب تتشدد بالعدالة وحب السلام وتكون كذلك بالفعل في بلادها ويتخذها أفرادها مبدأ لا يحيدون عنه في معاملتهم مع بنى جنسهم ولكنهم ينسون كل هذا إذا ما اعتدوا على أمة أخرى أو تعاملوا مع الأجانب . أما إذا ارتبطت العواطف والتفت مع عاطفة اعتبار الذات فإن حياتهم الوجدانية تسير في الطريق السوى نحو السكال ، فعاطفة اعتبار الذات هي وحدها الضمان للوصول للخلق القويم والشخصية البارزة المحترمة ، وكل عاطفة لا تتصل بها يضل صاحبها الطريق ، قالقضى مثلاً قد يكون في نفسه عاطفة حب العدالة فيجده عادلاً في كل أحكامه مادامت

القضايا خاصة بأشخاص ليس له في العدل بينهم مصلحة خاصة ولكنه قد يظلم من يتعامل معه ظلماً بينياً وينسى أنه قاضى ، أما إن ارتبط حب العدالة عنده بعاطفة اعتبار الذات فإنه لا يظلم مهما كانت الظروف ويععدل للناس جميعاً في القضايا التي يفصل فيها في محكمته وفي معاملاته الخاصة ، وقد يفضل أن يظلم نفسه عند الشك ولا يظلم الغير ، فإذا ظلم مرة ولو عن غير قصد لازمه الندم وتوبىخ الضمير (٦٧) .

وقد يكون الإنسان في نفسه عدة عواطف كحب البحث العلمى والتدين وحب الأسرة ، وتشكون كل من هذه العواطف قوية في ذاتها ولكنها تعمل مستقلة بحيث إذا شغله البحث العلمى نسى فروض الدين ومصالح العائلة ، فإذا عاد إلى بيته نسى البحوث العلمية ولم يشغله إلا حبه لعائلته ، أو يكون متديناً وقت قيامه بالفروض ثم يدين ببعض نظرات علمية تخالف الدين ، وقد يقيم بين العواطف سداً منيعاً فلا يستعين بالعلم على فهم الدين ولا يقحم الدين في العلم ، فكأنه عالم في ظرف ومتدين في ظرف آخر ، ورب عائلة في ظرف ثالث كأنه ثلاث شخصيات في شخص واحد .

(٣) المزاج : أما المزاج فلا حيلة للإنسان فيه مادام مصدره الغدد والجهاز العصبى والغرائز التي لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيها بسهولة وإن كان في استطاعة الإنسان الآن أن يعالج غده وأعصابه ، وأن يعدل من سلوكه الغريزى بالإبدال والإعلاء وبشئ من الإرادة القوية وبالمرنة ، والصبر ورياضة النفس وتبديل وجهة النظر للحياة يستطيع أن يغير من مزاجه بعض الشئ فيقل تشاؤمه وانقباضه مثلاً إن لم يستطع أن يصبح متفائلاً (٦٨) .

(٤) الخلق : وبيننا أيضاً أن الإنسان لا يصل إلى الخلق القويم

والإرادة الكاملة التي هي عماد الشخصية القوية إلا إذا جعل حياته الوجدانية كلها بعد تنظيمها تدور حول فكرة سامية أو مثل عال ينشده ، وبذلك لا تتعارض رغباته وتتنافر أغراضه ولا يوزع النشاط الحيوى بينها فيضيع سدى في هذا الصراع .

(٥) البدن : أما عاهات البدن وأعضاؤه وما يزينها أو يشينها فأثرها واضح جداً في تكوين شخصية الإنسان وأنواع سلوكه ، ونظرته للحياة ومعاملاته للناس ، وكَم من العلماء والأدباء والفلاسفة والقواد ثاروا على العالم والمجتمع ، وسخطوا على الزمان وتبرموا بالحياة ، ونادوا بالثورة أو قادوها بالفعل ، وقادوا العالم معها للدمار ، ونشروا فلسفة التشاؤم بين الناس ، أمثال — المعري ، وملتون ، وجنكينزخان ، وروسو — لا شيء إلا لأنهم كانوا ذوى عاهات بدنية وتكوين جسمانى ناقص فى ناحية من النواحي كان سبباً فى حرمانهم متع الحياة التى كان يرتع فيها زملاؤهم من الأطفال والشبان ، بل إن العلامة الصغيرة فى البدن قد يكون لها أثر كبير فى تعلق الناس بصاحبها أو نفورهم منه ونجاحه أو فشله فى الحياة ، ومن ثم تكون سبباً فى تكوين الشخصية المحبوبة أو المكروهة ، فكَم من الناس منهم كبر أنفهم أو طول آذانهم أو قصر أجسامهم من تبوء المراكز التى تؤهلهم لها استعداداتهم مالم يصلوا إليها بالقوة والثورة أو محض الصدقة أو بطريق غير مشروعة ، وكَم من الناس من تجعله الشامة على الخد أو الحور فى الطرف محبباً للناس مطلوباً فى مجالسهم (٦٩) .

والمظهر الخارجى واللباس لهما أثر كبير فى إظهار الشخصية وإخفاء عيوب الخلقة .

وقد قيل النظافة من الإيمان . وفى الأحاديث الشريفة : « أكرم شعرك

إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

٦ — أما مهنة الإنسان وعمله الذي يزاوله فهو بالضرورة يربطه بأشياء ومواقف معينة ويكسبه نوعاً خاصاً من العقلية والمزاج وأسلوباً خاصاً من التصرفات ، فقيادة الثيران أو الدواب تسكسب الإنسان عقلية بطيئة متواكلة ، أما قيادة السيارات — وخصوصاً سيارات الأجرة في العواصم الكبيرة التي تشتد فيها حركة المرور — تجعل السائق حاضر البديهة جريئاً وقت الخطر سريع التصرف ، وتصحيح الكراسات المدرسية يومياً مدة طويلة أو التفتيش على أعمال الناس يكون عقلية الإنسان تكويناً خاصاً يجعله دائماً متصيذاً للنفقات متطلعاً للنقص (٧٠) .

وقد ينشأ شخصان في مستوى واحد وبانتمادات متقاربة ثم يتخذان مهنتين متعارضتين كالتجارة وخدمة الدين ، فلا يلبثان أن يكتسبا شخصيتين متناقضتين إحداهما حريصة جشعة مادية والأخرى سهلة لينة روحية ، بل إن الشخص الواحد لتتغير شخصيته في مهنة ما عنه لو اتخذ غيرها من أول الأمر ، وكثيراً ما يجعل الإنسان عمله الذي يقوم به محور حياته فيحدث عنه وعما يجده فيه ويرفعه فوق سائر الأعمال ، أو يشكو منه فيراه أسوأ الأعمال ، حتى لسكان الطحان يرى أن القمح لم يخلق إلا لمطحنته .

ومن ظريف ما يروى في تطبع الإنسان بطابع مهنته ما رواه ابن خلدون أن رضوان قال : أنشدت أبا العباس بن شعيب مطلع قصيدة ابن النجوى ولم أنسبها له :

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى
فقال له على البديهة : هذا شعر فقيه . من قوله ما الفرق إن هي من
عبارات الفقهاء وليس من أساليب كلام العرب .

ويؤثر عن الإمام الشافعي وبعض أصحابه أنهما كانا في المسجد إذ دخل رجلا ن ، فقال الشافعي : وأشار إلى أحدهما هذا نجار ، فقال صاحبه : وهذا حداد ، فكانا كالا .

وقد أصبح لكل مهنة اتحاد ورابطة وناد ومجلات وجرائد وكل هذه عوامل تجسم الشعور بالمهنة وتساعد على تكون الشخصية المهنية .

٧ — أما البيئة فلها أثرها المباشر حتى منذ الطفولة ، فإن الطفل إذا لم يعامل من صغره معاملة هادئة طبيعية لينة تساعد مواهبه واستعداداته على النمو في طريقها الطبيعي تكونت فيه عند البلوغ شخصية غير متزنة ، ونحن نستطيع أن نقرأ على ملامح الشبان ونطالع في تصرفاتهم صفحات طفولتهم ونوع حياتهم السابقة ، والصعوبات التي قامت في طريقهم ، ولا فلاح للشخص ولا اتزان للشخصية إلا بعلاج هذه الصعوبات وإعادة تربية الغرائز والانفعالات من جديد حتى يزول العقد التي تكونت فأفسدت على الشباب نفسيته (٧١) .

وكل شخصية مبالغ فيها أو ناحية في الإنسان تمدفع بشدة وعنف دليل على عدم اتزان الشخصية ووجود صفة أخرى باطنة خفية تعارضها ، وتكون نفس الإنسان في الواقع مسرحاً لنزعات متطاحنة لا تجعله يتذوق طعم الهدوء والاتزان ، فالشخص المغرور المتعظم شخصيته غير متزنة بل هو في الواقع يشعر شعوراً تاماً بما فيه من نقص فيحاول أن يخفيه بالتظاهر بنقيضه (٧٢) .

ولذلك نجد أولاد السوقة هم أكثر اعتزازاً بمظاهر وظائفهم ويعاملون مرؤوسهم بكبرياء وعظمة في حين أن الذين نشأوا في بيوت المجد والأصل والكرم يعاملون الناس بالتواضع وكرم الخلق ولو كانوا أقل

منهم شأناً، والشعور بالنقص ينشأ عن أسباب عدة، منها: السخرية وتسخيف الرأي، وكثرة النقد لعيوب الشباب، والاختزال بالشدة في كل تقصير مع عدم الاستحسان للنقط الطيبة، والثواب على العمل النافع. فيفقد الشاب الذي يعامل هذه المعاملة الثقة بنفسه واحترامه لها ويتعد بالتدريج عن الناس ويقيم بينه وبينهم سداً، ويصبح ذا شخصية منكشمة منقبضة. فالأطفال المدللون الذين يحيطهم آباؤهم بكل صنوف الرعاية ويباعدون بينهم وبين الخطر ناسين أن الحياة كلها مخاطر بل هي أكثر التجارب خطراً ينشأون ضعاف الشخصية. وخير تربية للطفل أن نجعله يتغلب على الصعاب لا أن نزيلها من طريقه. وقد ينقلب الشعور بالنقص إلى محاولة للظهور عن طريق السرقة والإجرام وأعمال العنف والاعتداء، والبيت الذي تسوده السكينة والاستقرار من أهم العوامل لتكوين الشخصيات المتزنة في الصغار أما البيت المضطرب الهائج فن أول عوامل الشذوذ ومعول هدم الشخصية، ولذلك نجد سلوك الأولاد المطلقين والمطلقات والأرامل شاذاً ومنحرفاً في الغالب بعض الشيء.

أنواع الشخصيات:

حاول العلماء أخيراً أن يضعوا أنواعاً محدودة للشخصيات أو نماذج حتى تألف من ذلك علم جديد أو فرع جديد من فروع علم النفس يسمى علم النماذج «التبولوجيا»، واتجهوا في بحوثهم اتجاهات متعددة ولم يصل البحث إلى شيء من السكال وباب الاجتهاد فيه مفتوح، فمنهم من قسم الشخصيات على أساس الرغبات العامة التي تتملك نفوس الناس، ورأى بعضهم رغبات الناس العقلية أو النفسية تتخذ أشكالاً مادية تدور حول الأمور الآتية: الرغبة في استطلاع الجديد، والرغبة في الدعة والأمان،

والرغبة في الاتصال بالناس وتبادل المنفعة والرغبة في الشهرة والصيت (٧٣).
أما ولع الإنسان بالجديد فطبيعي وكل تجربة تخالف المألوف يقبل عليها الناس ولذلك يستطيع الناس جرأة اللصوص والحروب والمغامرات والألعاب الرياضية العنيفة والرحلات والبحوث العلمية ، وما السينما والمسرح والروايات إلا مظهر لها . وهذه الرغبة إذا تملك شخصاً جعلته جريئاً مقداماً يستهين بالمخاطر ، سريع التنقل لا يستقر على حال ، لا يعبأ بالتقاليد ولا يقدر المسؤولية ولا يرعى مصالح الجماعة ، وقد ينبجح صاحب هذه الشخصية لو عالج الأدب أو القصة أو البحث العلمي .

والرغبة الثانية تناقض الأولى بالضرورة ومن صفات صاحبها الخوف والهرب ، وتجنب المخاطر ، والمحافظة على التقاليد ، واتباع النظام والجمع والادخار خوف الطوارئ في المستقبل ، وبالجمله كل ما يوطد دعائم الاستقرار والهدوء .

أما الرغبة الثالثة : فأساسها الحب وتبادل العواطف وسرعة الاندماج في الجماعة ، والتعاون والمساهمة في أعمال البر وتنظيم الهيئات .
والأخيرة تدفع صاحبها إلى التظاهر حتى بالملبس والمسكن والعائلة ، والثروة والمنافسة والمسابقات . ركل ما يفسح المجال للظهور ، ومن ثم كان للرأى العام أثره في توجيه سلوك الزعماء والساسة والحكام وكل من يتصدى للأعمال الهامة التي يحرص فيها على الظهور أمام الناس بمظهر الشخصية القوية البارزة الفعالة .

على أن الأنواع المتعددة للشخصيات يعتبرها العلماء مراحل ثانوية ، أو صور ناقصة لشخصيتين هامتين ، وهما الشخصية الممتدة أو المنبسطة ، والشخصية المنكشئة أو المنقبضة ، فكما أن عواطف الصداقة والاحترام

والانتقام مراحل ثانوية تؤدي إلى عاطفة الحب أو الكراهية ، فكذلك
الأمزجة وأنواع الشخصيات تؤدي إلى هاتين الشخصيتين اللتين هما نهايتا
الطريق من ناحيته السالبة والموجبة وهما بالضرورة متناقضتان (٧٤) .

فالشخصية الأولى المنبسطة يتميز صاحبها بسرعة التفكير ، وحتى
التصرف قبل التفكير ، والإلمام السريع بالأشياء والمواقف ، وعدم الصبر
على التعمق فيها لاستقصاء كل أسبابها وسرعة تكوين الأصدقاء ومعرفة
الناس والحب المتبادل والثقة بالناس في المعاملات إلى أن يظهر منهم ما يحمل
على نزع هذه الثقة والميل للتغيير في الحياة ، وعدم البقاء على حال واحدة ،
والقدرة على الخطابة والتحدث للجماهير وترأس الجماعات والمرح والتفاؤل
في الحياة ، وعدم التفكير في الماضي ، وسرعة نسيان التجارب المؤلمة ،
والصفح والاتفاق ، وبالجملية يريد صاحب هذه الشخصية أن يمتد حتى ليغمر
العالم كله بشخصيته ولذلك ترى له أثراً بارزاً في كل عمل ومجتمع ، محبوباً
عند الناس يقبلون عليه وعلى مجالسه ، وإن كان مرحة وتساحبه وإهماله
وعدم حرصه يطمع الناس فيه وقد يسيئون إليه ولكنهم يبقى كما هو كأن
الحسائر المادية ومصائب الدنيا كلها ومتاعها أقل من أن يفكر فيها وأتفه
من أن يعسكر من أجلها مزاجه وأعصابه ، ولعله ينطبق عليه قول الرسول
الكریم : « رحم الله عبداً سلباً إذ باع ، سلباً إذا اشترى ، سلباً إذا
اقتضى » أو قوله : « أتى الله بعبء من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ما ذا
عملت في الدنيا ؟ قال يارب آتيتني مالا ، فكنت أبايع الناس ، وكان من
خليقي الجواز ، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى :
أنا أحق بذلك منك ، تجاوزا عن عبدي » وصاحب الشخصية المنقبضة على
على النقيض ، رجل يحب العزلة والابتعاد عن الناس ليتقى شرهم ، ويأمن

مكائدهم ، دائب التفكير والتحليل لنفسه ولشعوره ، يحسم هفواته وهفواته
الناس ، وينظر إلى الدنيا بمنظار التشاؤم الأسود ، حريص يعد العدة
للمستقبل ، يعمل أموره في الخفاء بعيداً عن الناس ، يتذكر ماضيه ، ويتألم
لسيئاته ، ولا يؤمل الخير في مستقبله ، لا يتصرف قبل أن يدرس كل
تفاصيل الموضوع .

وبالجملة هو الصورة السلبية للشخصية السابقة ، وقد يفيد حربه
وحذره ، وقد ينفعه تكتمه ووقاره ، ولكن كل هذا على حساب أعصابه
ومزاجه ، فيقول مع المعرى :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية أن يسكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
ويقول أيضاً :

يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين من فرح ومن أحزان
فكل من هاتين الشخصيتين لها مزاياها ومثالبها ، وخير للإنسان أن
يكون صاحب شخصية ممزجة منهما أو متوسطة ، فيمتد أحياناً فيما يفيد
الامتداد فيه ، وينكمش فيما يفيد الانكماش فيه ، أو يمتد مع الناس وينكمش
مع نفسه فيصبح متزاناً معتدلاً هادئاً ، لو كان هذا في مقدور كل إنسان .
ومن الواجب أن ندرس شخصيات الناس الذين نتعامل معهم ونعامل الغير
من الناحية التي تقر به إلينا وتجببه فينا وتكسبه ثقتنا ، فلا نعظ الممتدين
بالعذاب والويل والشبور ونحاسبهم على هفواتهم ، فهم يقبلون النقد والنصح
ونعرض لهم الرأي على بساطة بلا لف ولا دوران ، أو نطلب منهم التنفيذ
دون أن نرسم البرامج ، وندعوهم إلى المساهمة في كل عمل جمعي بدون
مقدمات ونشجعهم ، ولا نذكر لهم احتمال الفشل مالم يكن ذلك محققاً .

أما المنقبضون فلا نحدثهم في أمورهم الخاصة ونتحایل في تقديم ، ونخفف من وقع أخطائهم ونعظمهم بما ينفعهم في دينهم قبل دنياهم ، ونتركهم يعملون عملهم في هدوء بعيداً عن رقابتنا ، ولا نحرجهم بإرغامهم على الإندماج في الجماعات ، ولا نشير فيهم الشك ، وبذلك نريحهم ونكون عوناً لهم على أعصابهم ، وقد نكسب ثقتهم وصدقاتهم فنستطيع أن نلطف من نظرتهم للحياة ، وأن نردمهم إلى حظيرة الجماعة .

المقاييس العملية :

اهتم العلماء في العهد الأخير اهتماماً كبيراً بوصف الأمزجة والعواطف والشخصيات وتصويرها وعلى أساس دراستهم المستفيضة هذه — وإن لم تبلغ حد السكال بعد — وضعوا اختبارات ومقاييس عملية لأنواع الناس . وقد جربت المقاييس على عدد كبير من الناس فضبطت إلى حد ما ، وأفاد استخدامها كثيراً وإن كانت نتائجها تقرينية منها الحكم على المزاج من نوع الخط (٧٥) .

ومعرفة الخلق من الحكم على مواقف أخلاقية معينة وتحديد نوع من الشخصية من الصفات التي يعرفها الشخص في نفسه أو يعرفها الناس فيه ، ونذكر على سبيل المثال الاختبار الآتي لمعرفة الشخصيتين المنبسطة والمنقبضة ، والمقاييس كما وضعه أصحابه ليس على هذه الصورة ، وقد عدلته ليكون تقديره سهلاً ، فعلى من يريد أن يحتسب نفسه أن يجيب عن كل سؤال إجابة صريحة بنعم أو لا ويلاحظ صيغة السؤال إن كانت إثباتاً أو نفيًا (٧٦) .

١ — هل تفكر دائماً في النواحي السارة من الحياة .

٢ — هل تثق بالناس ثقة كبيرة ، حتى قبل أن نعرفهم معرفة كافية .

- ٣ — هل تحب أن تعمل عملك وحولك جماعة من الناس؟
- ٤ — هل تسر من المجتمعات لمجرد وجودك مع جماعة من الناس؟
- ٥ — هل تقبل مقترحات الغير بدلا من أن تفكر فيها أنت؟
- ٦ — هل تمل العمل المتعب؟
- ٧ — هل ينذر أن تحلل أفكارك ودوافعك؟
- ٨ — هل تحب أن يشاهدك الناس وأنت تعمل عملا وتحسنه؟
- ٩ — هل يشجعك مديح الناس على العمل؟
- ١٠ — هل تميل إلى أنواع التسلية غير الهادئة؟
- ١١ — هل تحب أن تترأس المجتمعات؟
- ١٢ — هل تحب أن تحاضر الجماهير وتخطب فيهم؟
- ١٣ — هل تحب أن تعمل عملك بسرعة في غير إبطاء أو تدقيق؟
- ١٤ — هل يسهل عليك أن تعبر عن مشاعرك الوجدانية ، كالفرح والغضب؟
- ١٥ — هل يضايقك الدخول في التفاصيل؟
- ١٦ — هل تخالط الناس بحرية ولو خالفوك في الرأي؟
- ١٧ — هل تنفذ مقترحات الناس ولا تقف للتفكير فيها؟
- ١٨ — هل تغنى بموضوع القصة والقطعة الأدبية أكثر من الأسلوب؟
- ١٩ — هل تقتصر ف بوحى الساعة؟
- ٢٠ — هل تكره التفكير في الأمور الخاصة بك؟
- ٢١ — هل تحب تغيير العمل بسرعة؟
- ٢٢ — هل تبوح بأسرارك لمعارفك؟
- ٢٣ — هل تدرس شخصيات الناس أكثر مما تدرس نفسك؟

- ٢٤ - هل تغير رأيك بسهولة ولو بعد تكوينه ؟
- ٢٥ - هل تشترك اشتراكاً فعلياً فيما يدور حولك من مناقشات ؟
- ٢٦ - هل تذكره أن تنفرد بنفسك كثيراً ؟
- ٢٧ - هل تنفعل أو تضطرب أحياناً ؟
- ٢٨ - هل تذكره أن تشغل نفسك بالتفكير في المستقبل البعيد ؟
- ٢٩ - هل يضايقك الابتعاد عن المجتمعات ؟
- ٣٠ - هل يضايقك الاستمرار في عمل واحد طول الوقت ؟
- ٣١ - هل تصمم على أمر ما قبل أن تفكر فيه ؟
- ٣٢ - هل تذكره أنواع التسلية الهادئة ؟
- ٣٣ - هل يسرك مراقبة الناس لك وأنت تعمل عملاً ما ؟
- ٣٤ - هل ينذر أن تستسلم لأحلام النهار والتخيلات ؟
- ٣٥ - هل تستطيع أن تضبط نفسك ولا تخرج عن حدك وقت الغضب ؟
- ٣٦ - هل ترى أنك قلما تفكر في الأمور الخاصة بك ؟
- ٣٧ - هل تظهر عدم الاهتمام بتخيلاتك وآمالك فلا تسعى لتحقيقها ؟
- ٣٨ - هل ينذر أن يهملك أسلوب الغير في الكتابة فلا تحاول أن تقلد أحداً أو تقتبس منه ؟
- ٣٩ - هل يضايقك أن تفكر كثيراً في موضوع واحد .
- ٤٠ - هل تعامل الناس ببساطة فلا تتصنع ولا تتحفظ ؟
- ٤١ - هل تذكره أن تتعب نفسك في الأحاجي والفواير والأمور المعقدة ؟
- ٤٢ - هل تفضل الأمور العملية على النظرية ؟
- ٤٣ - هل ينذر أن تدون يومياتك في مذكرة ؟

- ٤٤ — هل يضايقك أن يتكلم الناس في مجتمع ولا تشاركهم حديثهم .
- ٤٥ — هل تفضل ألا تفكر في شيء ما قبل أن تبدأ عمله ؟
- ٤٦ — هل تفضل أن تواجه المتاعب بدلاً من الهرب منها ؟
- ٤٧ — هل تعتقد أن الإشاعات غير صحيحة ؟
- ٤٨ — هل تثق بالناس قبل أن تعرفهم معرفة صحيحة ؟
- ٤٩ — هل تميل إلى قضاء عطلتك في الأماكن المزدحمة ؟
- ٥٠ — هل تميل إلى الإنفاق أكثر من الادخار للمستقبل ؟
- وبعد أن يجيب بنعم أو لا على كل سؤال ويرى ما ينطبق عليه منها وما لا ينطبق ، ويصدق في حكمه ولا يغش نفسه يعطى كل نعم درجة واحدة موجبة أو (+ ١) وكل (لا) درجة واحدة سالبة أو (- ١) وكل سؤال لم يستطع أن يجيب عنه صفراً ثم يجمع هذه الدرجات جمعاً جبرياً فتكون الدرجة النهائية دليلاً على الشخصية ومقدار قربها من الشخصية المنبسطة تمام الانبساط وهي (+ ٥٠) أو المنقبضة تمام الانقباض وهي (- ٥٠) أو المتوسطة المنبسطة المنقبضة وهي (صفر) فإن كان عدد إجابات نعم (٣٨) مثلاً وعدد إجابات لا (١٠) مثلاً والأسئلة التي لم يجب عنها (٢) تكون درجته ٣٨ - ١٠ = ٢٨ فهو صاحب شخصية منبسطة إلى حد مقبول وإن كان مجموع درجاته مثلاً ٨ - ٢٤ = - ٣٤ فالشخصية شخصية منقبضة إلى حد كبير ويمكن اعتبار الشخصية المنبسطة من + ١٥ إلى + ٥٠ والمنقبضة من + ١٥ إلى - ٥٠ والمتوسطة العادية من + ١٥ إلى - ١٥ (٧٧) .

الباب الثامن

الزعامة

تمهيد: يظهر في كل جماعة من الناس ، بين حين وآخر ، أفراد لهم شخصيات بارزة ، وصفات قوية تميزهم في ناحية خاصة ، عن غيرهم من أفراد هذه الجماعة . وتؤثر هذه الصفات القوية في الجماعة فتستهيوها وتتسلط عليها ، فتسلم أمورها لهم ، ويصبحون لها زعماء وقادة ، وينضم اليهم عدد من الأتباع المخلصين ، يدينون بمبادئهم ويدافعون عنهم وعن وجهات نظرهم وقد تتطور هذه الفرقة المؤلفة من الزعيم وأنصاره وأتباعه ، فترسم لها برنامجاً ، وتضع لها نظاماً تسير بمقتضاه ، وتصبح مدرسة فلسفية ، أو مجمعاً علمياً ، أو مذهباً دينياً أو فنياً . أو هيئة ثورية أو حاكمة ، أو حزباً سياسياً ، هؤلاء الناس أمثال كونفوشيوس وأبي حنيفة ومارتن لوتر في الدين ، وأرسطو وديكارت في الفلسفة ، والمعرى وشاكسير في الأدب ، وابن العربي وابن الفارض في التصوف ، وفرويد واینشتاين في العلم ، ورافائيل وبيتهوفن في الفنون ، يتركون أثرهم في الحياة العامة والخاصة على مر الأيام ويطبعون عقول الأفراد والجماعات بطابعهم الخاص ، ويوجهون الأفكار والنشاط والإنتاج في الطريق الذي رسموه وابتدعوه ، ويستمر أثرهم بعد وفاتهم ، ولو على الأقل في فريق خاص من الأتباع . بل أن السكاهن والقسيس والمفسكر والشاعر والفنان وكل من يتمتع في بيئته الصغيرة بمركز ممتاز نوعاً ما عن سائر أفراد الجماعة ، ولو في ناحية قليلة الخطر ، يكون له أثر خطير في توجيه هذه الجماعة الصغيرة التي ينتهي إليها ، حتى الساحر في

قبائل المتوحشين من أواسط أفريقيا ، والطبيب العراف في مجاهل استراليا والصياد الماهر في قبائل الهنود الحمر والإسكيمو ، والمنجم وكاشف البخت في البيئة الريفية الساذجة ، كل هؤلاء لهم من الأثر في الجماعات الصغيرة البدائية ما لأرسطو ونيوتن وماركوني في البيئات الكبيرة المتحضرة (٧٩) .

وهكذا تجد للناس زعماء في كل فن وعلم ، وكل ناحية من نواحي الإنتاج العقلي واليدوي ، وكل حركة من الحركات الاجتماعية . ويبلغ من سلطان هؤلاء الزعماء ، أن الناس تغالى في تقديرهم ، وتشيد بذكورهم ، وتنظم القصائد تغنياً بحبهم ، وتسجل كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم ، وتؤلف الكتب في وصفهم ، وتوضع السير في تفصيل تاريخ حياتهم ، وينسب لهم كل عمل جليل يتم في عهدهم بتأثيرهم ، أو فيما بعدهم بتأثير تعاليمهم ، وتقام لهم التماثيل وتخلد ذكراهم بكل ما وسع الناس من وسيلة ، ويحج الناس إليهم وإلى آثارهم في مختلف الأقطار ويتجشمون المشاق في سبيل رؤيتهم واستماع حديثهم . بل أنه ليكفي أن ينشأ عظيم في قرية ما ، حتى يعلو شأنها ويكثر عمرانها ، وتصبح كعبة الحجاج والقصاد (٨٠) .

وكم من قرية صغيرة ، وبلد ناء صغير يعرفها الناس أكثر مما يعرفون بلادهم ، لأنها اقترنت باسم زعيم أو عظيم ، كعمرة النعمان بلد المعري ، وستراتفورد أون إيفون بلد شاكسبير .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن «وداً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً وثسراً ، وهى الأوثان التى كانت فى قوم نوح أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا أنصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون إليها أنصباً بأسمائهم وعند تقادم الزمان عبدت بذبائح تذبح منذورة وغير منذورة واستشفع بها ودعيت .

وليس تقدير الملوك والأمراء والخاصة بأقل من تقدير العامة والدهماء لهم . فقد أنزل الإمام مالك الخليفة هارون الرشيد عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس ، لأنه في رتبة المستفيد ، ولم يستنكر الخليفة ولا الرعية هذا الفعل .

ويذكر علي بن يوسف القفطى أن أهل المعرة عند ما حاصروهم صالح ابن مرداس صاحب حلب سعوا الى أبي العلاء المعرى ليخرج له ويشفع فيهم ، فأكرمه صالح واحترمه وسأله ما جئت فقال :
الأمير — أطال الله بقاءه كالسيف القاطع ، لان مسه وخشن حده ،
وكانه نار البلع ، قاطع وسطه ، وطاب برده — خذ العفو وأمر بالعرف
وأعرض عن الجاهلين .

فقال صالح قد وهبتها لك وترحل . وكان أمراء العباسيين يحفظون للعلماء من أهل الذمة مقامهم ويصلونهم عن سعة ويحوظونهم بصنوف الرعاية كما لو كانوا مسلمين . فلما مات سلمون بن بنان النصراني . وكان طبيب المعتصم جزع عليه جزعاً شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصاري ، وكان المتوكل يعطى حنين بن اسحاق وزن ما يترجمه ذهباً .
وانتهت الرئاسة — وهى أعلى مراتب الدولة — إلى يحيى بن عدى بن حميد بن زكريا المنطقي ، وبلغ ثابت بن قره الحراني الصابي عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه . والتبسط ورفع الكلفة من جانب الحكام والأمراء ، دليل على التقدير .

ومنه أن بختيشوع بن جبريل جلس الى جانب المتوكل يوماً وعليه دراعة حرير بها فتق ، فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل الى ما اتسع من الثوب (النيفق) وسأله : بماذا تعلمون إن الموسوس (المصاب

بجبل في عقله) يحتاج الى الشد بالحبل حتى لا يؤذى الناس ؟ فقال بختيشوع :
إذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه ، فضحك المتوكل
حتى استلقى .

ظاهرة طبيعية إنسانية : والإنسان بطبيعته قابل لأن يزعم وأن يخضع
لزعامة ، بحسب ما توجهه الظروف ، حتى في المجالس العادية والأعمال
البسيطة ، وقد ورد في الحديث الشريف :

« إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » . والمتتبع لتاريخ الجماعات
البشرية وتطورها يرى هذه الظاهرة محسوسة ملموسة من أقدم العصور
تظهر باضطراد الى الآن ، وإلى ما بعد الآن . فقد بدأ الناس في أول
تسكوتهم ، قبل عصر الديانات السماوية بآلاف السنين ، يشعرون بحاجتهم
الى إله يتصرف في شؤونهم كيفما كان ، وصورت كل جماعة منهم إلهها كما
سمح لها خيالها . ولكنهم جميعاً تخيلوا الآلهة كأفراد على صورة البشر
يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتقاتلون وينعمون بالحياة وملاذها ،
ويشقون بآلامها ومتاعها ، ويجرى عليهم ما يجري على سائر الناس . فهم
بشر أو كالبشر ، ولكنهم في نظرهم أقوى إرادة وأكبر عقلاً ، وأكثر
قدرة على التصرف من سائر البشر .

وبعبارة أخرى وهم أناس زعماء ، وأساطير المصريين القدماء عن
أوزيريس وإيزيس وهوروس ، وأساطير الهنود عن براهما وراما ، وإلياذة
هوميروس عن حياة آلهة اليونان في جبل أوليمبوس ، مليئة بهذه الصور
الإنسانية .

أما فيما بينهم وبين أنفسهم ، وقد كان عماد حياتهم في أول نشأتهم
الصيد والقتنص ، وشغلهم الشاغل الحصول على القوت ، وقتال الحيوان

الذى هو مصدر القوت ، فكانوا يدينون بطبعهم لزعيم دقيق الحس ،
خبير بمواطن الصيد وعاداته سريع التصرف وقت الخطر ، وله فوق هذا
قدرة اقتصادية على تنظيم موارد القوت وتوزيع الارزاق وادخار الزائد
عن الحاجة ، ولذلك كان هذا الزعيم يسمى بالصياد الأول .

وانتقلت الجماعة البشرية إلى طور الزراعة ، فاستقرت نوعاً ما ،
واستوطنت قطعة من الأرض تفلحها وتزرعها وتستغلها ، وأصبح لها ملك
تدافع عنه ، وتكونت بينها وبين الجماعات القريبة منها روابط وعلاقات
بحكم الزواج والتبادل والتعاون ، ودخلها الحرص على ملكها والطمع في
ملك الغير إذا ضاقت بها موارد الرزق ، فأخذت تختار من بين محاربيها
الأشداء الممتازين محارباً كبير الجسم والعقل ، خارق البسالة مسموع
الكلمة ، فكان الزعيم هو المحارب الأول ، وطبيعى أن يتخذ هذا الزعيم من
رجال القبيلة الأقوياء بطانة يرتبط معها برباطة النسب ويوليها شيئاً من السلطة
إرضاء لها من جهة حتى لا تنافسه وتطمع في اغتصاب سلطانه ولا تتفاد من
مواهبها من جهة أخرى . ويصبح كل من الزعيم والبطانة رقيقاً على الآخر
فتتحقق المصالح العامة ويأمن الضعفاء على أنفسهم وأملاكهم إذا اختلفوا
فيما بينهم أو يستبدون بهم ويضجونهم على مذبح شهواتهم ومطامعهم ان
اتفقت البطانة مع الزعيم ، وهذه الخطوة هي باكورة النظام السياسى
الإنسانى ، وترى أن الأمير أو الملك أو الحاكم في هذا النظام السياسى
الفطرى كان هو الزعيم القائد ، وأن الحكم كان أو توقيراطياً فردياً
استبدادياً (٨١ ، ٨٢) .

ولذلك كانت الشعوب ترفع ملوكها وأبطالها وشعرائها وكنهتها ، وهم
زعماء قوتها وفكرها ودينها إلى مرتبة الآلهة وأنصاف الآلهة أو على

الأقل إلى مرتبة القداسة والمعصومية ، ففرعون هو الإله بذاته ، وأخيل في اليونان هو ابن الآلهة ، وميكادو اليابان هو ابن الشمس ، وامبراطور الصين هو ابن السماء .

وتزداد ظروف الجماعة تعقيداً ، وتعدد حاجاتها ونواحي نشاطها ، وغذائها ، وطبيعة مواردها ، وعلاقاتها بالجماعات الأخرى ، فينشأ نظام الطبقات : طبقة الأشراف أو الزعماء أو الرؤساء والحكام ، وطبقة المحاربين ثم العامة ، وأخيراً طبقة العبيد .

ويسعى الزعماء إلى تدعيم هذا النظام استدامة لنفوذهم ، فيخلعون عليه صفة آلهية ، أو دينية روحية ، فيصبح الحاكم خليفة الإله الذي حملت روحه فيه ، ويخلق الزعماء من رأس الإله — كما تقول الأساطير البرهمية — والمحاربون من ذراعيه وصدره ، والعامة من ساقيه وقدميه ، والعبيد أو المنبوذون من التراب الذي يسير عليه (٨٣) .

ويسعى الحكام من جانبهم لاستدامة نفوذهم في حياتهم لأنفسهم ثم لأولادهم وذريتهم من بعدهم ، وتسقط عن الحكم صفة الزعامة الأولى وتبقى لهم صفة الوراثة ، وتنشأ عن ذلك الأنظمة المختلفة للحكم ، من الحكم الفردي الأوتوقراطي الذي يتولاه ملك واحد ، والدكتاتوري الذي يتولاه واحد من الشعب بمفرده يغتصب السلطة لنفسه ، أو يستبد به مع وجود الحاكم الشرعي ، أو الدستوري الذي يتولاه الحاكم مع طبقة مختارة من الشعب ، أو الجمهوري الذي يتولاه الشعب نفسه باختيار واحد منهم بحكم لاجل معين ، وليس من شأننا المفاضلة بين هذه الأنظمة وتحديد مركز الزعيم فيها (٨٤) .

الظروف المهمة لظهور الزعماء :

على أنه مجرد اعتراف الجماعة لفرد ما بالشخصية القوية الممتازة لا يكفي وحده لأن يخلق منه زعيما يطاع أو قائداً يتبع فالبينة التي تكون ظروف الحياة فيها سهلة ميسرة ومعاملات الناس فيها بسيطة مألوفة ، تسير فيها الأمور الاجتماعية في مجراها الطبيعي بحيث لا تحتاج إلى شخصية جبارة تنظمها أو تجدد لها أفكارها ومعاملاتها وأساليب حياتها ، بل إنها لتجد في تقاليدها وعرفها وسنة آبائها الأولين دستوراً لعقيديتها وأفكارها وفنونها وآدابها وأخلاقها وجميع مظاهر حياتها ، تشهرها سلاحاً في وجه كل من تحدّثه نفسه بالتجديد .

وتاريخ الرسول الكريم والإسلام حافل بالجهاد في سبيل الدعوة إلى الحق والتوحيد ومكارم الأخلاق ، والعمل على إخراج العرب مما كانوا غارقين فيه من أمية وضلالة وانحلال خلق وتفرق كلفة ، فهل كان هذا الجهاد المستمر في أول الدعوة إلا مع أهل الرسول أنفسهم ، وقريش والعرب الذين بعث الرسول ليهديهم ، فيسعدهم في دنياهم ويفتح لهم طريق الجنة في آخرهم . يقول الله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ويؤمر الرسول بالدعوة « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ، فيلبي الدعوة ويبدأ بالترحيد ، والسمو بالعرب من عبادة الأوثان والاصنام التي لا تضر ولا تنفع « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبشون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ، فيقول المشركون : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب » وانطلق الملائمة منهم أن امشوا

وَصَبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا فِي هَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ
 إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا ، وَيُؤْمَرُ الرُّسُولُ
 وَالْمُؤْمِنُونَ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى
 الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ،
 « لَتَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذْنَ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ،
 وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ، أَوْ لَيُضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ
 لَيُلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ » . وَيَقِفُ الرُّسُولُ الْكَرِيمُ يَدْعُو النَّاسَ فِي مَوَاسِمِ الْحُجِّ
 إِلَى دِينِهِ الْقَوِيمِ وَيَقُولُ : « أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ
 يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْزَلَ عَلَى الْكِتَابِ ، فَهَلْ تَبَايَعُونِي عَلَى
 أَلَّا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا
 بِبَهْتَانٍ ، فَإِنْ وَفِيتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذْتُمْ بِجَدِّهِ فِي
 الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَإِنْ سَتَرْتُمْ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَمْرُكُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 إِنْ شَاءَ عَذَابٌ وَإِنْ شَاءَ غَفْرٌ » فَيَسْخَرُ مِنْهُ قَوْمُهُ وَيَأْلَبُونَ عَلَيْهِ الْقِبَابِلَ .
 وَيُؤْمِنُ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْحَبِيبِ كَالْخُرْجِ . وَيَعَامِلُهُمْ بِالْحَسَنِ وَيَدْعُو إِلَى سَبِيلِ
 رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ فَيُدْفَعُونَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَيَكِيدُونَ لَهُ وَيُؤْذِنُونَهُ وَيَأْتُمِرُونَ
 عَلَيْهِ وَيَسُدُّونَ عَلَيْهِ الْمَنَافِذَ ، فَيَضْرَعُ إِلَى مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي
 وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ ،
 وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي . إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي إِنْ
 لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنْ عَافَيْتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ
 وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ
 يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيْكَ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ
 وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ،

فهل كان للعرب في سوء مسلكهم وعنادهم واستمرارهم في كفرهم ووطغيانهم ، والبقاء في ظلام جهلهم خشية نور اليقين ، ووضع أصابعهم في آذانهم خشية كلمة الحق ، إلا دافع واحد ، هو أن هذه الدعوة الجديدة تنكر آلهتهم وتسفه أحلامهم وتهدم تقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم الأولين . ومنهم من لم يعرف للتقاليد حكمة ولا للدعوة الجديدة معنى ، فانساق وراء رؤسائه ومشايخه يعبد كما يعبدون ، ويقول كما يقولون . وفيهم يقول الله تعالى « وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » . ومنهم الضعفاء المستكينون يخضعون للأقوياء المستكبرين « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول : يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين » وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » « وإذ يتحاجون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد » .

وهكذا تاريخ الدين والعلم والإصلاح كله كفاح بين التقاليد ونزعة التجديد ، ويطول أمد الكفاح بقدر رضا الناس عن ظروفهم القائمة وعدم الرغبة في تغييرها . ولا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فإذا تغيرت ظروف الجماعة الإنسانية وتعدت أحوالها وطراً عليها

أمر لا تستطيع أن تتصرف فيه كما كانت تتصرف من قبل ، وعجزت وسائلها القديمة المألوفة عن مجابهة الموقف الجديد ، كما يحدث وقت الأزمات وعند الكفاح والأخطار العامة من حرب أو مجاعة أو وباء ، وفي أدوار الانتقال ، فإن الجماعة تفقد رشدها أولاً وتتخبط في أمورها وتدفع ثمن هذا التخبط غالياً ، من دماؤها وأموالها وأولادها ، وتجذب نفسها آخر الأمر مضطرة للبحث عن رجل فذ كبير الشخصية له كفاية ممتازة تناسب الظروف القائم ، وتثق في قدرته ، أو يخيل إليها إنها واثقة ، وترى أنه جدير بتحمل العبء الثقيل والتصرف بأقصى سرعة بما يضمن الخلاص من المأزق ويحقق الغاية المنشودة (١٥) .

وأحياناً تجدد الجماعة عدة شخصيات كبيرة كلها جديرة بالزعامة في هذا الظرف الخاص فتترك لها حق اختيار واحد منها زعيماً عليها ، أو تختار الجماعة بدون تردد زعيماً لها من بينهم ولا تقبل بعدئذ أن ينافسه أحد ، ما دام الظرف الذي دعا إلى وجود هذه الزعامة قائماً ، وقد منى الإسلام بظرف طارئ كهذا عد ماتوفى الرسول ولم يترك وصية ولم يستخلف أحداً ، والتبس الأمر على الناس في اختيار خليفة رسول الله ، وأرادت كل قبيلة أن تؤمر رئيسها ، أو يتصلحوا على أن يكون من هؤلاء أمير ومن أولئك أمير ، وبدأت الفرقة تدب بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج وبين بني هاشم وغيرهم .

وهنا تخطو الشخصية الكبيرة خطواتها الأولى ، فيقف أبو بكر الصديق يوم السقيفة ، يخطب الأنصار ويناشدهم أن يختاروا الخليفة من المهاجرين الأولين ، إنما أدعوكم إلى أبي عبيدة أو عمر ، فكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر ، وكلاهما له أهل . فلم يسارع أحدهما لاغتنام الفرصة ، ولا إلى

بكر ماله من مقام في نفوس المسلمين ، فيرد أبو عبيدة يامعشر الأنصار :
 أتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير . ويرد عمر :
 معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا ، أنت أحقنا بهذا الأمر
 وأقدمنا حجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت أفضل المهاجرين وثاني
 اثنين إذ هما في الغار ، وخليفته على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ،
 فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يديك أبايعك ،
 وتم البيعة لأبي بكر أول الخلفاء الراشدين ، وقد سار في خلافته السيرة
 المثلى ، وكان أصلح الناس للخلافة بحكم البيعة والزعامة بقوة شخصيته ،
 وراح في سير الرجال مرضياً عنه من الله والناس . ولكنه مع هذا كله
 يقول وقد مرض مرض الموت : لمتني يوم سقيفة بني ساعدة كنت ضربت
 على يد أحد الرجلين أبي عبيدة وعمر ، فكان هو الأمير وأنا الوزير . وهم
 بهذا يعملون بقول الرسول الكريم : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة
 أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله
 وغش جماعة المسلمين » .

وكم من رجال ذوى شخصيات ممتازة بحق ، أدوا لبلادهم من الخدمات
 القومية ما لم يؤده الساسة والزعماء ، ومع هذا فلم ترفعهم أهمهم إلى مرتبة
 الزعماء ، لأنهم كانوا يعملون في صمت وهدوء ، أو كانت أعمالهم بعيدة النتائج
 فلم يقدر الناس خطرهما في وقتها ، أو كان تفكيرهم فوق مستوى عقلية
 الجماهير بكثير ، أو كان في خلقهم الشخصى شئ من التردد والحذر والتكتم
 يجعلهم محترمين بالعقل مكروهين بالوجدان ، أو تكون المشروعات والغايات
 التي كرسوا أنفسهم لتحقيقها بعيدة عن مصالح الجمهور المادية وحاجاتهم
 الملحة الطارئة ، فلا يتطلع الجمهور إليهم ولا يحس بهم ، ولا يعرف فضلهم

إلا بعد أن يخنى ثمار جهودهم ، أو يكون فيهم صفات ليست محبة الى الناس ، قد تضعف من أثر الصفات الطيبة التي يتحلون بها ، ولولاها اكملت زعامتهم . وتجد لهذا أمثلة كثيرة في صدر الإسلام عندما كانت الخلافة منوطة بالزعامة وقوة الشخصية ورضا الناس قبل أن يجعلها معاوية وراثية فقد دخل المهاجرون على عمر رضى الله عنه ، بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى وقالوا : يا أمير المؤمنين استخلف علينا ؟ فقال : والله لا أحكم حياً وميتاً ، إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى (أبو بكر) وإن أدع فقد ترك من هو خير منى (الرسول الكريم) — يامعشر المهاجرين الأولين إنى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً ، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم ، تشاوروا ثلاثة أيام ولا تتفرقوا حتى تستخلفوا أحدكم ، فقالوا : قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدى به ، فنظـر إلى نفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، وقال : والله ما يمنعنى أن أستخلفك ياسعد (بن أبى وقاص) إلا شدتك وغلظتك مع إنك رجل حرب ، وما يمنعنى منك يا عبد الرحمن (بن عوف) إلا أنك فرعون هذه الأمة ، وما يمنعنى منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب ، وما يمنعنى من طلحة (بن عبيد الله) إلا نخوته وكبره ولو وليها وضع خاتمه فى إصبع امرأته ، وما يمنعنى منك يا عثمان (بن عفان) إلا عصبيتك وحبك قومك ، وما يمنعنى منك يا على (بن أبى طالب) إلا حرصك عليها وإنك أحرى القوم بها إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم .

وقال عبد الملك بن مروان فى عبد الله بن الزبير : د إن فيه ثلاث

خصال لا يسود بها أبداً : عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه ، فلا يسود أبداً .

قبول الزعامة : وطبعي جداً أن يقبل الإنسان زعامة الشخصيات الكبيرة ، ويسلم لها قياده طوعية واختياراً ، بل إنه ليصطنعها اصطناعاً إذا لم يجدها ، مادامت نزعاته الطبيعية واستعداداته الفطرية تجعله مهياً لذلك ، فهو يخاف عند الشدة ويحتمي بمن هو أقوى منه إن لم يجد لنفسه مخرجاً ، ويتهيب الأمر الجديدي عليه ، وفيه غريزة الخضوع لمن هو أقوى منه ، وشعور سلبى بالذات إزاءه ، وقابلية للاستواء تحمله على قبول آراء الممتازين عنه في ناحية ما ، والتسليم بها دون مناقشة أو إعمال للفكر والمنطق والعمل بمقتضاها من غير تفكير أو إرادة . وفوق هذا كله فيه غريزة للتجمع مع أفراد جنسه ، تدفعه للحياة مع الجماعة وفيها ، والائتناس بها ، والشعور بالوحشة والضييق في البعد عنها ، فهو اجتماعي بطبعه ، ومن أهم صفات الكائن الذي يعيش في مجتمع أن يخضع لسلطان من هو أقوى منه ويستسلم لرؤاسته ويقبل زعامته (٨٦) .

وهو إلى جانب هذه النزعات الموروثة يستطيع أن ينمى فيه عواطف مكتسبة تدور حول أشخاص يحبهم ويحترمهم ، ويحلمهم ويقدرهم ، ويتطوع أمرهم ، ويتفانى في إرضائهم ، أو حول مبادئ وغايات يجعلها محور سلوكه وتصرفاته ، ويدافع عنها ويستमित في سبيلها ، وينضم إلى لواء من يعمل على تحقيقها ، ثم إن الجماعة التي تسعى لغرض خاص تضع نفسها دائماً طوعاً أو كرهاً تحت إرشاد شخصية قوية ، ترسم لها الطريق ، وتنظم لها خط السير ، وتعد لها العدة ، وتوحد الجهود الفردية الموزعة ، فتجعل منها قوة عامة ، ونشاطاً اجتماعياً جباراً ، ونظاماً واحداً منسجماً . يمكن الجماعة من

تحصيل هذا الغرض الذى ترمى إليه .
وليس خضوع الأبناء للآباء ، والمتعلم للمعلم ، والمواطن للدولة ،
والمؤمن لسلطان الدين ورجاله ، والجنود لضباطهم ، والأهالى لموظفى
الحكومة ، والأحزاب السياسية لزعمائها ، إلا مظهراً من مظاهر هذه
النزعة الطبيعية .

ويقول ابن خلدون - بعد أن بين ضرورة الاجتماع - أن هذا الاجتماع
إذا حصل للبشر وتم عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن
بعض ، لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم ، فيكون ذلك الوازع
واحداً منهم له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى
غيره بعدوان (٨٧) .

ويقول فى مناسبة أخرى : « لا بد لهم فى الاجتماع من وازع حاكم
يرجعون إليه ، وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل ، وتارة
إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم
بعد معرفته بعملهم (٨٨) .

حتى عصابات المجرمين وقطاع الطرق والقوضويين لا بد لها من زعيم
يوحد جهودها ، فيحكمها بمفرده بيد من حديد ، ويفرض عليها نظاماً قاسياً
محكماً ، أو يؤلف لها مجلساً أعلى يتصرف فى شؤونها (٨٩) .

فالإنسان دائماً أحد شخصين : إما متسلط على غيره ، أو معترف له
بالسلطان عليه ، والاعتراف معناه قبول رأى المتسلط بلا معارضة والتسليم
لإرادة شخص آخر ، والامتناع عن إبداء الرأى الخاص ، إن كان مخالفاً أو
معارضاً لرأى الأشخاص الممتازين أو العرف والتقاليد ، أو الهيئات صاحبة
السلطان ، ونتيجة تسليم الأفراد لهذا النظام انسجام أفكارهم وأعمالهم

وتصرفاتهم مع أفسكار هؤلاء الزعماء من أفراد وهيئات . وسيرهم تبعاً لرغباتهم وأوامرهم وإرشاداتهم ، وفي الحدود التي تفرض عليهم فرضاً . أو التي يقبلونها بمحض اختيارهم . ويتسكون من هذا دافع قوى ، يوجه تصرفات الناس وسلوكهم نحو غايات معينة ومن ذلك خضوعنا لله والدين والملك والحكومة والقانون ، خضوعاً يفرض علينا أن نشعر ونفكر ونتصرف في الطريق الذي يحتمه هذا الخضوع ، والسلطات تضع لنا القواعد وترسم لنا الحدود ، هي تأمر ونحن نطيع ، وتشرع ونحن ننفذ ، أو هي تضرب لنا العملة ونحن نتعامل بها ، وتكون لنا بمثابة الرأس ونحن لها الأعضاء (٨٤) .

والزعماء أنفسهم يطالبون الناس باحترام السلطان والقانون . إن كان ذلك مصلحة لهم ولقضيتهم .

فأفلاطون يقول : وإن القوانين منزلة كيفما كانت ، وعلى جميع المواطنين يطيعوها طاعة عمياء ، ولو كان بها ظلم للفريق منهم (٩٠) .

وقد بلغ من احترام سقراط لقوانين بلاده أن فضل شرب السم تنفيذاً لحكم الإعدام ، الذي أصدره مجلس الأمة لما اتهم سقراط بالظن في الآلهة وإفساد عقول شباب أثينا ، على استغلال فرصة الهرب التي أتاحها له أتباعه وشرب كأس السم بيده (٩١) .

وفي الحق أن هذه العبودية الاختيارية ، والوصاية المفروضة على النوع الإنساني من قديم الزمان ، لظاهرة غريبة ولغز خفي ، كان من الممكن أن يبيح العقل البشري لنفسه التفكير في صلاحيتها وربما الخروج عليها ، كما يحدث أحياناً من بعض الملحدین والشائرين والفوضويين والخوارج

لولا شدة اعتقاد المجموع في ضرورة وجودها وفائدتها للنوع البشري (٨٤-٨٦) .

ولو كان صاحب السلطان مسئولاً عن جماعة صغيرة من الناس .
والحديث الشريف يقول « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمر الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلمها وهي مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، وهل هناك أدل على ضرورة وجود الإمام أو الزعيم ولو كان جائراً من قوله عليه الصلاة والسلام : « الإمام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار » ، وأدل على ضرورة طاعته ما لم يأمر بمعصية من الحديث : « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ، وحث المؤمنين على « ألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان » ، و « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

ونحن نرى الجماعات البشرية من أقدم عصورها تنقسم إل فريقين : فريق متسلط أعلى يتمثل في الحاكم والمتبوع والخدم ، وفريق خاضع أسفل يتمثل في التابع والخدم والمحكوم . ونرى الناس تقبل نظام الطبقات طواعية واختياراً وإن اختلف الأساس الذي تقوم عليه هذه الطبقات — بحسب المناخ والبيئة والتربية — كما تختلف اللغات والعقائد ، فيكون نظاماً دينياً أو اجتماعياً أو عسكرياً ، ويكون طبيعياً موروثاً . أو مكتسباً مصنوعاً . وهذا النظام على ما يبدو فيه من عيوب واستبداد وإيثار فريق من المقربين في الحقوق والواجبات ، على فريق آخر من المحرومين ، فهو

العامل الأكبر في تطور الجماعات البشرية — من الفوضى المطلقة في بدء التاريخ، وقت أن كان الإنسان الهمجي المتوحش يرى أن كل شيء في الوجود حلالاً مباحاً له وإن كان الحق لقوة الفرد وحدها — لما وصلنا إلى ما وصلت إليه الإنسانية من قانون ونظام وعرف ووسائل تضمن مصالح الأقلية والضعفاء، بعد أن مرت في أدوار متعاقبة كلها صراع ونزاع وثورات وانقلابات .

وبدون تبعية الفرد للجماعة — يعمل معها وفق نظامها وأساليبها — وطاعة هذه الجماعة لزعيم يهيمن على شئونها، ويصرف أمورها، ويضع لها نظامها الجديد أو يعدل لها من نظامها القديم، يختل التوازن الاجتماعي بين الأفراد والجماعات والأمم (٨٤) .

وكيفما كان النظام الذي ترتضيه الأمة طوعاً أو تحكماً به كرهاً ، فهي لا بد خاضعة لنوع من أنواع الزعامة ، ولا بد مولية قيادها لشخصيات كبيرة ممتازة في ناحية من النواحي .

وهذا النداء النفسى للتنظيم الاجتماعى ، والدافع الطبيعى لاحترام القوانين وإطاعة الزعماء ، يثبت بلا ريب أن مسألة الزعامة والسلطة قوام لمسألة العقيدة ، أى أنها ليست ظاهرة تاريخية ولا مادية ، وإنما هي ظاهرة نفسية قبل كل شيء .

صفات الزعيم :

يتبين مما ذكرنا أن الزعيم هو فرد له شخصية ممتازة ، يشعر الناس بعظمتها في الناحية التى تتطلبها الظروف القائمة أو هو على الأقل يبدو في نظر الناس كذلك . والعظمة شيء نسبي يختلف تقديره باختلاف المقدرين ، والمهم أن يكون الزعيم خير من فى الجماعة ، وأحسن مافى البضاعة ، وأن

يمثل فكرة أو مبدأ يحتل شعور الجماعة ويجذب انتباهها ، ويوجه تفكيرها ولو لوقت قصير ، كمنجوم الشينما . فإنه لا يمكن أن يصبح في نظر أتباعه مثلاً أعلى إلا إذا كان فوق مستواهم — كالنجم يرى ولا ينال . ومهما كان الزعيم ، قائداً ، أو سياسياً ، أو مصلحاً دينياً ، أو كاتباً اجتماعياً ، أو حتى قاطع طريق ورئيس عصابة ، فهو نسيج وحده ، وزعامته حسنة كانت أم سيئة ، يجب أن تستمد من صفاته القوية المتسلطة ، ونشاطه المستمر الفعال (٩٢) .

وسنحاول أن نصوره في ضوء ما يجب وما لا يجب أن يكون عليه .

١ — فهو أولاً صاحب مبدأ ورسالة يقنع الناس بها ، أو هو من ناحيته يتمسك بالمبدأ الذي اختير من أجله زعيماً ويعمل على تحقيقه ، أو هو وكيل عن الأمة وعن الجماعة في قضيتها ، فيحاول دائماً أن يعمل في حدود هذه الوكالة ، وقد وضع الرسول الكريم هذا المبدأ ، فأعلن الناس بادية ذي بده بالمهمة التي اختارها الله لأدائها ، وأنه سيلتزم فيها حدود الله التي شرعها في كتابه الكريم ، حتى أنه عند ما أمر بالقتال في سبيل الدين « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » صدع بالأمم وأنذر العرب قائلاً : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) .

٢ — وهو يعتمد على نفسه أولاً في العمل والتنفيذ ، ليضرب المثل الصالح لأتباعه ومؤيديه ولا يتسكل على غيره ، وهل هناك في هذا الباب أروع مما قاله طارق بن زياد في حملة العرب على إسبانيا : « وإني لم أخذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أن

أبدأ بنفسى ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاعة القوم لذريق فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى فإن هلكتم بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتم قبل وصولى إليه فأخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا أنفسكم عليه ، واكتفوا لهم من فتح هذه بقتله .

٣ - وله أن يستشير أولى الأمر من خاصته ، والشورى من أسس الإسلام ، وهى كذلك أساس العدالة فى المحاكمة والنظام النيابى فى الحكم ، على أن لا يسلم قياد أمره لأحد ، حتى ولا لأصفيائه المختارين ومستشاريه الممتازين ، ولا يبلغ عقله أو يعمل دائماً بوحى سواه ، وإلا أصبح هو البوق الذى ينفخ فيه أتباعه من وراء الستار فيكشف أمره ، ويسقط فى نظر أتباعه ، ويصبح المستشارون أولى بالزعامة منه .

٤ - ويستطيع أن يعبر عن رأيه بطلاقة وقوة ويردد صدى ما يشعر به الناس فى قرارة نفوسهم ، وكأنه يغنى لحن الزعامة على أوتار قلوبهم ، وأن يشبع العواطف قبل أن يقنع العقول ، وأن يلبس خطبه وأقواله فى كل مرة ثوباً جديداً ، فالزعامة التى هى القوة المدافعة فى كل الحركات الاجتماعية مولعة بكل جديد (٩٢) .

والزعيم السياسى بصفة خاصة يجب أن يكون قديراً على الخطابة فى كل ظرف وفى كل مكان ومناسبة ، وأن يكون مستعداً للكلام والارتجال والإقناع ، والإفاضة فى البيان كلما طلب منه الكلام . وقد كان دهاة العرب السياسيين - أمثال عمرو بن العاص - على جانب عظيم من قوة الحججة وفصاحة اللسان ، وحضور البديهة وحسن التخلص . ولا يتعين أن يكون

الزعيم اديباً بليغاً ، وإنما يجب ان يكون سلس العبارة واضح الأداء ، يفهم الناس كلامه على النحو الذي يريد هم ان يفهموه ، وان يلقيه بأسلوب المطمئن إلى نفسه . ولهجة الواثق من غايته . وكم من خطبة قصيرة او جملة واحدة تكون أوقع في نفوس الناس لأنها تجيء مطابقة لمقتضى الحال .

وقد وقف عثمان بن عفان رضى الله عنه يخطب الناس بعد البيعة ، فارتج عليه ، فقال : « ايها الناس إن اول مركب صعب ، وإن اعش فستأتمكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً » .

وكذلك فعل المعز عند ما دخل القاهرة واستقبل الناس ، وكانوا يتساءلون على حسبه ونسبه ، فما كان منه إلا نثر دنانيره وأمسك بسيفه ، وقال : « هذا حسبي وهذا نسبي ، وكفى .

وقد كان الرسول الكريم يتكىء على قوس وهو يخطب في الحرب فإذا غطت اتسكأ على عصا . وعليه ان يكثر من ترديد المسائل الهامة في مناسبات عدة ، كأن يلقيها للناس وبذلك يكسبها قوة تستهويهم . وقد وردت في القرآن آيات التوحيد ونبذ الشرك ٣٥٠ مرة ، والإيمان والاعتقاد في الله ٣٠٠ مرة ، ووصف عذاب جهنم لردع الناس ٢٩٠ مرة ، ووصف الجنة للترغيب ١٩٥ مرة ، في حين وردت الصلاة مائة مرة فقط .

وينتفع الخطيب بقدرته الكلامية على الوجه الأكمل إذا استطاع ان يصير في كل خطبه الحماسية على النحو الآتي :

يفكر في جمهور مستمعيه وينظر إليهم بكل وجهه ، ويبحث عما يهمهم ليتحدث فيه ولا يشعرهم بأنهم اصغر منه مقاماً أو علماً ، ويجعلهم يشاركونه تفكيره احياناً كما لو كان الرأي منهم ، ويفكر معهم ويحسن استخدام النكتة والدعابة التي تدخل المرح على نفوسهم ، ولا يغضب منهم وإنما معهم على

خصومه وخصومهم ، ويكون صوته محتملاً — إن لم يكن جميلاً — ويغير من أسلوبه وصوته ، فلا يكون نمطياً أو على وتيرة واحدة ، ولا يجعل مظهره وملبسه وحركاته تحتل بؤرة شعورهم ، فتتضاءل امامها قوة الكلام ذاته ، ولا يكون محزناً في تأثيره ، ويتجنب الكلام المطروق ، والممعن في الغرابة على حد سواء ، ولا يجعل كلامه مفككاً أو منتشرأ ، ويرتب نقطه في مجموعات صغيرة ثم في مجموعات اكبر ويختتم بقوة (١٠٣) .

٥ — ويكون قادراً على التأثير في غرائز الناس ووجدانهم ، ومخاطبة عواطفهم ، وأن يشاركهم شعورهم ، بل إنه ليجب عليه أن يجعل من نفسه محوراً تدور حوله مشاعرهم ، ومركزاً تبني عليه عواطفهم ، وكلما كان أقدر على الاتصال بشعور الجماعة ، ومشاركتها وجدانها ، كانت زعامته أقوى وأظهر أثرأ (٩٣) .

وفي هذا يقول الإمام الغزالي : « وذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس أن يقدر على أن يتصرف فيها ، يستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه ، ويكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال عنده — وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً ، وينبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع — فقدر ما يعتقدون من كماله تدع عن له قلوبهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب . ومعنى قيام الجاه في القلب اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص ، إما لعلم أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال في صورة ، أو قوة في بدن ، أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً (٩٤) .

٦ — ويجب أن يظهر دائماً بمظهر القوة المستمدة من المبدأ الحق الذي

يدين به ، والقوة دائماً تستهوى الناس وتجعلهم مطمئنين إلى نجاح صاحبها وهم دائماً يسابقون الظروف في الحكم على أعمال العظماء الذين عودوهم هذه القوة ، ويتوقعون لهم النجاح في كل أمر ولو بدون مبرر ، وقبل أن يبدؤ من مسلك العظماء ما يؤيد هذا الزعم ، بل إنهم لينتظرون منهم أن ينجحوا في كل عمل ، ولو كان خارجاً عن نطاق دائرة الأعمال التي جعلتهم زعماء ، والعامة تغفر لزعمائها الأقوياء هفواتهم بقدر ماتجسم من حسناتهم ، وتنسى فشلهم بقدر ما تذكر نجاحهم .

وليس من السهل زوال اعتقاد العامة في زعيم ما حتى بعد سقوطه وفشله في نظر الخاصة العارفين ببواطن الأمور ، ولذلك تكون مهمة خلاص الخاصة من زعيم فاشل قديم أشق بكثير من إيجاد زعيم صالح جديد (٩٣) .

وليس معنى القوة أن يكون مستبداً بالناس شديداً في معاملتهم فيجابه الأمة ، أو على الأقل جمهرة المسؤولين فيها بما يصدم شعورهم أو يستهزئ بآرائهم ، لأن طرائقهم في معالجة الأمور ووجهات نظرهم تخالف طريقته وزيه ، استناداً إلى ما وصل إليه من مكانة وعقيدة وتقديس في نفوس الدهماء كأن هذا السلطان الأدنى للزعامة قوة مادية دائمة يصعب أن تتحول أو تتبدل ، أو وقف لا يحل ، أو تراث لا يبدد ، وكأن الزعامة ضريبة على الجماعة تؤديها وهي صاغرة بلا تبرم ولا تذر ما دامت قد دانت لهذه الزعامة وأوكلت أمرها إليها ، والاستبداد يؤدي إلى الكراهية التي يحق فيها قول الرسول « ثلاثة لا تتجاوز صلاتهم رؤوسهم : العبد الآبق ، وامرأة زوجها ساخط عليها ، وإمام أم قوماً وهم له كارهون » .

فالزعيم الماهر يصطنع الرفق في سياسته ، والحلم حتى مع خصومه .

وقد ضرب معاوية المثل لدهاة السياسيين وزعماء الأمم بطول صبره وأناته مع خصومه ، والإحسان إلى من أساءوا إليه ، حتى أصبحوا له مخلصين ، وإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

وقال تعالى : « فم رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ، فاعف عنهم واشتغفر لهم وشاورهم في الأمر » .

وقد قال الرسول الكريم عن نفسه : « إن الله لم يبعثني معتاً ولا معتاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً » وهكذا يجب أن يكون الزعماء والقادة .

وفي الحديث الشريف : « إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف ، وإذا اقترنت القوة بالتواضع ازدادت روعة وجلالا وسمواً في المسكاة ، فكلما دفع الفضل عنه ارتد إليه .

٧ - ويجب أن يكون رائده التوفيق بين وجهات النظر والهيئات ليكتسب من توحيد الرأي ، وضم الصفوف ، قوة تزيد زعامته ثباتاً واستقراراً ، وقد دعا الرسول بعد عهد الحديبية إلى الحج دعوة عامة شملت المسلمين وغير المسلمين من العرب ، وأفسد بذلك خطة قريش ، وفوت عليهم غرضهم في إثارة العرب ضده ، وإظهار ما يترتب على سياسته من كساد في التجارة ونقص في المواد ، وبذلك جعل العرب كلهم جبهة واحدة تقف أمام قريش .

٨ - ويكون الزعيم للجماعة كالراعي الماهر للقطيع ، يسير معه متقدماً خطوات قليلة تجعله معه ولكن ليس مندمجاً فيه ، فيشعر القطيع بأنه واحد منهم وإنما في صورة مكبرة ، وأعلى صوتاً وأسرع تخلصاً ، في المواقف وتصرفاً للأمور ، يسمعون صوته عند النداء ، ويحسون بصوته عند التقريع (٨٦) .

٩ - وعليه أن يكيف نزعاته الخاصة وميوله حتى تنسجم مع ميول الجماعة ، لتزداد صلته بهم وثوقاً ، وأن يعمل على إخفاء ما يخالف شعورها ، وما يعارض مبادئها الثابتة وعقائدها المتأصلة التي هي أقوى من الاستعداد لقبول الزعامة ، ولو على الأقل في مبدأ ظهوره إلى أن يأخذهم بالحسنى ، ويتدرج معهم حتى يقتربوا من المبادئ التي يرسمها لهم . فالزعيم المملد أو الفاسق يفلح في أمة لا تعز بدنيها أو خلقها ، ولكنه حتماً يفشل ولا تقوم له قائمة في بلد يستمسك أهلها بعري دينهم ، ولا تفلح الدعوة للجمهورية في بلد يدين أهله بالملكية ويدنون للعرش والجالس عليه ، ولا تجد الدعوة للشيوعية والثورة مثلاً أذناً واعية في بلد يقبل نظام الطبقات ويدن أهله بالنظام والتقاليد . ولذلك قوبلت دعوة معاوية لولاية العهد لابنه يزيد في الشام بغير ما قوبلت به في الحجاز ، فوجد الضحاك بن قيس يقف في الشام متملقاً معاوية مروجاً ليزيد فيقول :

« وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين وحسن مذهبه وقصد سيرته ويمن نقيبته ، مع ما قسم الله من المحبة في المسلمين والشبه بأمر المؤمنين في عقله وسياسته وشيمته الرضية مادعانا إلى الرضى به على أمورنا » .

ويقول عبد الرحمن بن عثمان الثقفي : « يزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته وبلونا علانيته ورضينا ولايته » ، أما في الحجاز فقد تشدد قرابة رسول الله في الأمر وتصلبوا ورفضوا مبايعة يزيد ولم يجد معاوية بداً من أن يسير اليهم بنفسه ، ويجمعهم أمام الناس والسيوف على رؤسهم ويعلمن الولاية ليزيد ويتخذ من سكوتهم رضا ، وهكذا تم البيعة ليزيد على كره من الخاصة الذين يعرفون سوء سيرة يزيد وتهاونه في أمور دينه وانصرافه إلى كلابه وقبائله وشرابه وأمور دنياه ، وفيه قال ابنه معاوية الثاني .

« ثم قلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه » .

وما يقوله الإمام محمد عبده عن الخليفة وصاحب السلطان في الإسلام يصدق على الزعيم .

« ثم هو مطاع مادام على الحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه — لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق — فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه (٩٥) .

وقد ضرب الخلفاء الراشدون المثل الصالح فقال أبو بكر : « وإن زغت فقوموني ، وقال عمر « فإن رأيتم في إعوجاجاً فقوموه » ، ١٠ — وعليه أن يحسم النواحي الطبية في خلقه وسلوكه ، ويظهر بالصورة المحببة إلى نفوس الجماعة ويبرزها ، وأن يخفي ما عداها ويتستر على ما فيه من عيوب ونقائص ، فإن شخصية الزعيم ترتبط بمبادئه ، وحياته الخاصة جزء متمم لحياته العامة ، والنقص في الأولى قد يهدم الثانية ، ولا يمكن أن يسلم الناس للزعيم بأنه بشر مثلهم له عيوبه الخاصة كما أن له فضائله العامة ، ولا يمكن أن يفصل الناس هاتين الناحيتين . فليتستر على عيوبه إن أراد المحافظة على كيان زعامته ، ما دام لا يجد من قوة الإرادة ما يتخلص به من هذه العيوب (٨٦) .

١١ — وليس أقتل لشخصية الزعيم من الغرور وحب التملق وسماع الرياء ، ومدح الناس له بما ليس فيه ، وكراهية البصح والضيق بالنقد البريء . فليأخذ مثله في نبذ النفاق والمنافقين . من عمر بن الخطاب . فقد

قال مرة : قد أعيانى أهل الكوفة ، إن استعملت عليهم ليناً استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديداً شكوه . ولوددت أنى وجدت رجلاً قوياً أميناً استعمله فيهم .

فقال واحد من القوم — أنا أدلك يا أمير المؤمنين على الرجل القوى الأمين ، هو عبد الله بن عمر . فقال عمر : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بها ، لا أستعمله عليه ولا على غيرها ، وأنت قم وأخرج ، فمد الآن لا أسميك إلا المنافق .

ولأخذ مثله فى سعة الصدر للنقد من معاوية . فقد نصح ابنه يزيد بقوله : « يا بني من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدوية فداوه بمثل هذا الدواء ، وقال زياد فى خطبته البتراء التى القاها على أهل الكوفة « وقد كانت بينى وبين قوم إحن ، فجعلت ذلك دبر أذن وتحت قدمى ، فمن كان محسناً فليردد فى احسانه ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته لو أنى علمت أن أحكم قد قتلته السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له سترأ حتى يمدى لى صفحته ، فإن فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدمنا سيسر ، ومسرور بقدمنا سيبتئس . »

ويحذر ابن خلدون الزعيم من كذب بطانته فيقول : « ومن الأسباب المقتضية للكذب تقرب الناس فى الأكثر لأصحاب التجارة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك ، فيستفيض الأخبار بها على غير حقيقة (١٠٢) . »

١٢ — وعليه أن يجعل المصلحة العامة رائده ، فلا يفتر عن تحقيقها ولو على حساب مصلحته هو والأقربين إليه ، وقد قال الرسول « إن لله

تعالى عبادة اختصهم بجوائج الناس يفزع إليهم الناس في حوائجهم ، أولئك
الآمنون من عذاب الله . ويقول ابن خلدون في هذا المعنى : « السياسة في
في الملك هي ككفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم .
وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به
الشرائع ، فإذا نظرنا إلى أهل المعصية ومن حصل منهم الغلب على كثير
من النواحي والأمم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله — من العفو
والكرم عند الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف ، وحمل
الكل وكسب العدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الأموال
في صون الأعراض ، وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء الحاملين لها ،
والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم
والتبذل في أحوالهم ، والانقياد إلى الحق ، والتواضع للمسلمين ، واستماع
شكوى المستغيثين ، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض
العهد علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم ، واستحقوا بها أن
يكونوا سياسة من تحت أيديهم (١٠١)

وإن كان الزعيم حاكماً فأولى به أن يرعى مصالح الضعفاء والمساكين ،
الذين لا يمكن أن تصل أصواتهم إليه ، وأن ييسر لهم من السبل ما
يمكنهم من الوصول إليه .

والرسول يقول : « أبغوني الضعفاء ، فإنما ترزقون وتنصرون
بضعائكم » .

ومن ثم ينزه الزعيم نفسه عن الأغراض الخاصة التي تعارض المصلحة
العامة أو تعطلها ، وعن انتهاز الفرص والتماس الغنم المادي لنفسه ولأهله
وأتباعه من وراء زعامته ، وعن التحيز في المعاملة لفريق دون فريق ، وقد

قال الرسول الكريم رداً على أسامة عند ما استشفع في إقامة الحد على امرأة قرشية سرق : « إنما أهلك الذين من قبلكم إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، وعند ما هاجر من مكة إلى المدينة خشى أن يقبل ضيافة أحد ، فيميزه عن غيره فيشير الحسد والغيرة في نفوس الآخرين وتحدث الفتنة ، فترك لناقته خطامها تسير ، ونزل حيث بركت ، ولما وجه عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لحرب العراق قال : « لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء » .

وقد قامت بسبب التحيز في معاملة الأقرباء والخاصة في صدر الإسلام أكبر فتنة في تاريخه ، قسمت المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وجرت على أثرها من المحن والأرزاء ما قصر عهد الخلفاء الراشدين ، ونقل الدولة من شوربة إسلامية إلى استبدادية كسروية ، وهي فتنة عثمان بن عفان ، فقد فوض النفر الذي أوصى عمر بن الخطاب باختياره خليفة عند ما حانت منيته ، عبد الرحمن بن عوف ، يختار لهم من أنفسهم واحداً منهم ، وبعد أن انتهى إلى رأى ، أخذ ييسد عثمان وقال له : « عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتكم لتقيمن كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبك ، وشرط عمر ألا تجعل واحداً من بني أمية على رقاب الناس ، وقال مثله لعلي بن أبي طالب خاصاً ببني هاشم ، فرفض على وقبل عثمان وتمت البيعة له ، ولكنه سرعان ما عزل الولاة وغير أولى قرابته ، وأطلق لهم الجبل على الغارب في إرهاب الناس ، ولم يسمع قول الناصحين المنذرين ، فاندلعت نيران الثورة التي انتهت بقتله

في أشنع صورة ، وبدأت بذلك صفحة سوداء سيئة في تاريخ الإسلام .
وكل حركة تخلق زعامة تقوم بجهود أناس ضحوا وعذبوا ، فطبيعي أن
يكافأوا وأن يعوضوا عما فقدوه ، وأن تسند إليهم المناصب التي تمكن
الزعيم من أداء مهمته إن كان حاكماً أو سياسياً ، كما أن كل حركة ناجحة تضم
عدداً ليس بالقليل من المرتزقة النفعيين ، الذين ينتحلون لأنفسهم في الجهاد
نصيبياً أكبر مما قاموا به ، بل إنهم ليتظاهرون بالتضحية ويسكون
ويستصرخون ويطلبون ويلحفون .

فعلى الزعيم الماهر أن يعرف لكل فرد قدره وقيمه ، وأن لا يرضى
أتباعه بالباطل على حساب الآخرين ، وأن يضع حداً لمطامعهم ويخفف
من غلوئهم ، وأن لا يميلاً مناصب الدولة بهم . ولذلك تحرص الدول
الديمقراطية ذات النظم البرلمانية الدستورية على أن يبقى جميع موظفيها في
مراكزهم آمنين على مستقبلهم ، مطمئنين في حاضرهم — اللهم إلا نفرأ من
أصحاب الوظائف السياسية يخيئون مع الحزب البرلماني الحاكم ، ويخرجون
بخروجه من الحكم .

وقد زالت دولة بني أمية لأنهم كما يقول واحد من أشياخهم : شغلوا
بلذاتهم عن تفقد ما كان تقدمه يلزمهم ، فظلموا رعييتهم فبئسوا من إنصافهم
وتمنوا الراحة منهم ، ووثقوا بوزرائهم فأثروا منافعهم ، وأمضوا أموراً
دونهم أخفوا عليها عنهم ، واستدعاهم الأعداء فتضافروا معهم على حربهم ،
وطلبهم أعداؤهم فعجزوا عنهم لقلة أنصارهم .

ويقول الإمام محمد عبده عن العباسيين :

« وأما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس

وأضعفت الأمة وفرت الكلمة ، فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم ، وحبهم الإستئثار بالسلطان دون سواهم (٩٦) .

ويقول ابن خلدون « وإنما نكس البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم وامتازوا عن سواهم ، حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغضبوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية » (٩٧) .

ويلخص بعض العلماء صفات الزعيم السياسى الناجح فيما يلى :—
 قوة الإرادة — معلومات عامة وثقافة واسعة . قوة العقيدة ، الإكتفاء بالنفس ، وطيبة القلب ، وعدم المصلحة الخاصة . الشهرة فى ناحية ما . إحساس فوق العادة بالنزعات الإجتماعية والصناعية ، ومبلغ قوتها من الناحية السياسية ، إدراك حاد وسريع للإتجاهات المحتملة لسلوك الجماعة فى ظرف ما ، وسرعة استغلالها ، سهولة ضم الناس إلى صفوفه وإيجاد الحلول الموفقة ، سهولة التعامل مع الناس على اختلاف أمزجتهم وطبائعهم . سهولة التعبير عن عواطف الناس والأمور التى تهمهم بالقول والكتابة ، الشجاعة (١٠٣) .

ويعطينا ابن طباطبا صورة للزعيم السياسى مثله فى وصفه لا كبر ساسة الإسلام معاوية : « كان عاقلا فى دنياه ، لبيباً عالماً حليماً ، ملكاً قوياً ، جيد السياسة حسن التدبير بأمور الدنيا ، عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً ، يحلم فى موضع الحلم ، ويشدد فى موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً ، باذلاً للمال ، محباً للرياسة مشغولاً بها ، فلا يزال أشرف قرش

يفدون عليه بدمشق ، فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ، ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلوات الجملة ،

واستمع إلى زياد ذاته يقول في خطبته البتراء :

« أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة ، ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيتنا بمناسحتكم لنا ، واعلموا أنه مهما أقصر فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أتاني طارقاً لبيل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانة ، ولا مجمراً لكم بعثاً ، فادعوا بالصلاح لسااستكم ولأتمتكم فإنهم المؤدبون ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشرّبوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك أسفكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدرّكوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . نسأل الله أن يعين كلا على كل » .

الزعيم الديني — وهناك نوع من الزعامات يفوقها جميعاً بما فيها السياسية ، وهي الزعامة الدينية ، وبخاصة في الإسلام الذي هو دين سياسة واجتماع ، ونظام ومعاملات ، بحيث يصح أن يقول إنها تجمع أطيب وأقوى ما في الزعامات الأخرى من صفات .

فأول ما يجب أن يتوافر فيه ، قدرته على الكلام بأسلوب فياض ، وبيان أخذ . . تارة بالعاطفة التي تلهب نفوس الناس وتنمي استعداداتهم نحو الخير والدين ، وتارة بالمنطق والمعقول ، حتى تصل العقائد إلى عقول

الناس وقت أن تصل إلى قلوبهم ، والعالم الذي لا يحسن الكلام لا يستطيع أن ينقل بعض ما يعيه صدره من العلم إلى صدور الناس ، ثم هو يخاطب الناس على قدر عقولهم ويتخير من الأسلوب ما يناسب كل ظرف وجماعة من الناس .

ويشارك الناس عواطفهم ووجدانهم فيواسيهم عند كربتهم ، ويعطف عليهم في محنتهم ، ويخفف من وقع البلوى عليهم ، ولا يترفع عن مخالطتهم أيأ كان مستواهم وظروفهم ، على أن يظل محتفظاً بكرامته ووقاره بينهم — يغضب ولكن من غير حفيظة أو مرارة أو خروج عن الحد ، ويصفح عن المسيء بمجرد أن يستغفر ، وينظم للناس أحوال جماعتهم ومعاملاتهم وآدابهم ، ويفقههم في أمور دينهم ، ويبشرهم بشريعتهم ، ويعظهم ويقرعهم ولكن من غير تهكم أو استخفاف ، ويجادل ويعارض من غير إسفاف أو ازدراء ويكون كلامه وأسلوبه للناس أدباً يفجر لهم ينبوع البيان من القرآن والحديث وكلام الأئمة المجتهدين والسلف الصالح ، وذوقاً يلطف من طباعهم ويرقق من حواشيمهم ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، فخير العقائد ما جاء نتيجة اقتناع وتسليم ، لا عن إملاء وتلقين ، وينظر إلى الناس نظرة الأب الرحيم إلى أولاده الجاهل ، يثيبهم إن أحسنوا ، ويعاقبهم إن أساءوا عقاباً ليناً هادئاً ، من غير إيذاء ، ولكن لا يجامل في السيئة ، ولا يحمل الناس على إرضاء الناس في معصية ، ويضرب البدع والخرافات بيد من حديد ، ويكون حرباً عواناً على أعداء الدين ، ويكون مصلحاً مجتهداً ، فالدين لم ينزل لجنس واحد من الناس وفي عصر خاص ، وإنما هو صالح لكل زمان ومكان ، والعلم الحديث هو وليد القديم ، وكلاهما لا يستغنى عنه الدين ، والدين إن لم يسير العصر الذي نعيش فيه في واد والعالم

كله في واد، وعليه أن يكون شجاعاً في رأيه، يسديه بصراحة إن كان يرى الحق معه ومصلحة الدين فيه، وإن خالف جماعة الجامدين المحافظين، وأخيراً يحمل سلطان الدين فوق كل سلطان، وحرمة فوق كل حرمة، وقدرته تفوق كل اعتبار، وطاعة الإنسان للخالق الديان واجبة قبل طاعته لأخيه الإنسان.

والإمام المراغي يقول: «أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله، ويستثمرونه في الحوادث، ويفهمون سنة رسوله القولية والفعلية، فهم قادة الأمة في الدين، الذين يدركون أسرارهم، ويفهمون أغراضه، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم إحاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب والسنة تطبيقاً صحيحاً، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحققة لمصلحة الأمة، في دائرة الكتاب والسنة.

وعلى هذا جرى سلف الأمة، واستثمر العلماء نصوص الكتاب والسنة ووضعوا قوانين الدولة الإسلامية كاملة في زمانهم، ولم تكن لهم شهوة في الخلاف، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله (١٠٤).

ولئن قدر لهذه الإنسانية المعنوية أن تخلص من ويلاتها وآلامها، وأنظمتها الفاسدة، وأن تظفر ببعض الشيء بالطمأنينة والهدوء، الذي يمكنها من الجمع بين مصالح دينها ودنياها، والعمل لأولها وأخرها، فإنما سيكون ذلك بفضل زعماء الدين.

فإن الأغراض العملية التي يسعى إليها أهل الأديان كما يقول المراغي هي على الأجمال:

جعل الدين أداة فعالة في تهذيب الجماعة وتمكين العوامل المعنوية التي

تُشترك فيها الأديان من التأثير في الحياة الإنسانية الواقعية وتصيير الفضائل العملية التي تدعو إليها الأديان كلها نظماً عملية، بذلك يقل فتك الشرور بالإنسانية في الأمم، وتقارب أنظارها وتدنو الإخاء الإنساني بتقارب غاياتها وسلامة نفوسها، ونظراً لأن الإنسانية قد نالها عسف كثير، فمن الحق أن تظفر بالطمأنينة الكاملة من هذا الخطر ليتم للتدين ورجال الدين أن يعملوا على إسعادها، والدعوة إلى تنمية الشعور الديني المشترك يجب أن تسبقها الزمالة بين رؤساء الأديان أنفسهم (١٠٦).



خاتمة

نسأل الله تعالى أن يبصرنا بأمور الدين والعلم ، وأن يمكننا من تعديل طبائعنا والسمو بغرائزنا ، وأن يهيئ لنا سبيل تكوين العواطف الصالحة فنحب الخير وأهله ، ونكره الشر والداعين إليه ، ونجعل حياتنا تدور حول محور الكرامة والواجب ، وأن يعيننا على علاج نقط الضعف فينا واستغلال نواحي القوة ، لتكثر فينا الشخصيات القوية ، العاملة المتفائلة ، وعندئذ نطمح في أن يكون منا زعماء في السياسة والأدب والعلم والدين ، يأخذون بيدنا وينظمون أمورنا ، فنبنى وإياهم مجد الأمة على أساس متين ونعيد إلى النفوس الضالة الشقية روح الطمأنينة ونعمة الدين .

مراجع وتعليقات

- ١ - في علم النفس جزء أول فصول ١، ٢، ٣ للمؤلف وآخرين .
- ٢ - علم النفس النظري والتعليمي للمؤلف - ص ٢٠
- ٣ - Mc Dougall - Intr. to :social Psychology — ٣
- ٤ - مرجع ١ فصل ٤
- ٥ - الأسفار الأربعة
- ٦ - النجاة ص ٢٦٦
- ٧ - التدبير . فصل بيان الأفعال الإنسانية
- ٨ - الدروس الدينية ١٩٣٩ ص ١٦
- ٩ - ص ١٧ ١٠ - ص ١٧ ١١ - ص ٧
- ١٢ - تفسير الحجرات ص ٣٦ ١٣ - ص ٧
- ١٤ - دروس ١٩٣٨ ص ١٣
- ١٥ - مرجع ٣ ص ٧٤
- ١٦ - Gal ton - Inquiries into Human Faculties P 72 — ١٦
- ١٧ - 5. Hall - Adolescence — ١٧
- ١٨ - مرجع ٣ فصل ٢ وإضافي ٣
- ١٩ - Charater & Conduct of Life — ١٩
- ٢٠ - Starch - Educational Psy — ٢٠
- ٢١ - مرجع ٣ ص ٢٥

٢٢ — الحجرات ص ٢٧	
٢٣ — دروس ١٩٣٨ ص ٤٧	
٢٤ — حجرات ص ٥	
٢٥ — ص ٢٦	
Dumville - Child Mind	— ٢٦
٢٧ — مرجع ٣ ص ٤١٢	
Manal. Of Psy. C3	— ٢٨
Loveday & Green - Intr. to. Psy	— ٢٩
Oakden & Sturt - Educ. Psy.	— ٣٠
Hall - Youth (Theory of catharsis)	— ٣١
Thomson - Ins tinct,	— ٣٢

Intelligence & Character. P: 158

٣٣ — مقالات العقل الباطن للمؤلف : مجلة نشر الفضائل الإسلامية	
٣٤ — مرجع ٣ فصل ٥	
٣٥ — دروس ٣٨ ص ٢٣	
٣٦ — مرجع ٣ فصل ٥	
Shand - foundation of Character.	— ٣٧
٣٨ — تاريخ الفلسفة في الإسلام : تعريب أبي ريده ص ٧٥	
٣٩ — التهذيب ص ١٠ و ٨٨	
٤٠ — الفوز الأصغر	

- ٤١ — الحجرات ص ١٨
 ٤٢ — دروس ٣٩ ص ٢٩
 ٤٣ — الحجرات ص ٢٦
 ٤٤ — ص ٢٠
 ٤٥ — دروس ٣٨ ص ٤٠
 ٤٦ — دروس ٣٩ ص ١٠
 ٤٧ — ص ١٦
 ٤٨ ص ٩٥
 ٤٩ — الحجرات ص ١٤
 ٥٠ — الشفا للقاضي عياض
 ٥١ — دروس ٣٨ ص ٥
 ٥٢ — التدبير
 ٥٣ — مرجع ٣٨ ص ٢٣٧
 ٥٤ — مقامات العارفين
 ٥٥ — دروس ٣٦ ص ٢٦
 ٥٦ — ص ١٠
 ٥٧ — التهنيد
 ٥٨ — عيون المسائل
 ٥٩ — الروضة الطبية لابن بختيشوع ص ٢٠

Hall - Asynthetic Genetic study of fear - A. J:psy 1914	— ٦٢
Bridges - Atheory of	— ٦٣
Personlity - 5. Abn. soc. Psy. 1925	— ٦٤
Thouless. Intelligence.	— ٦٥
Mc Dougall - Energies of Man: P 183	— ٦٦
P 383	— ٦٧
Downey J. E - The Will Temperament & its Testing	— ٦٨
O'Shea M. V - The child & His Nature P 16	— ٦٩
Bogardus. E. S - The occupational Attitudes - J:	— ٧٠
	٦٩ مرجع — ٧١
	٦٢ مرجع — ٧٢
Thomas W. i - The unadgusted Girl P 4	— ٧٣
Conklin E. s - The definition of	— ٧٤
Introversion, Extroversion, Aliied Concepts - J ABN. Soc.	
Psy 1922	
Nenmann Kohlstedt	٧٦ — معدل عن مقياس
	٧٧ — التشاؤم والتفاؤل ، مقال للبولف : الهلال ١٩٣٤
Thomas W.1 - T' province Of soc psy AM. J. soc 1904	— ٧٩
Emerson R. w: Representative Men	— ٨٠
Leopold-Prestige, Apsy Stuy of sociallestimates.	— ٨١

- Mamford - origin Of leader - ship, Am. J: Soc 1609 — ٨٢
- Harold Smith - Outline of hinduism — ٨٣
- Ludwig Stein - the Soc Of Authority pub. Am. soc — ٨٤
society 1923
- Elyowin E. B - the Executive & His control of men — ٨٥
- Trotter W - Instincts of the herd in peace & war. — ٨٦
- ٨٧ — المقدمة ص ٣١ فصل أول من الكتاب الأول
- ٨٨ — " ٢١٣ - ٥٢ فصل ثالث من الكتاب الأول
- Puffer J. A - The Boy In His group — ٨٩
- ٩٠ — الشرائع Laws.
- ٩١ — محاورات أفلاطون : تعريب زكي نجيب محمود
- Cooley C. H. Human nature & The soical order. — ٩٢
- ٩٤ — الإحياء جزء ثالث ص ٢٤٢ بيان معنى الجاه وحقيقته
- ٩٥ — الإسلام والنصرانية ص ٩٣
- ٩٦ — ص ١٣
- ٩٧ — المقدمة ص ١١ المقدمة
- Cosnell A. F. Boss Platt, New York machine Intr. — ٩٨
- Abdul Magid. The psy. Of Leadership — ٩٩
- Schwartz B. L. General Types of superior Men. — ١٠٠
- ١٠١ — ص ١٠١ - ٢٠ فصل ثان الكتاب الأول

- ١٠٢ — ص ٢٦ الكتاب الأول في طبيعة العمران
- ١٠٣ — Overstreet H. A. Influeucing Human Behaviour
- ١٠٥ — الحجرات ص ٢
- ١٠٦ — رسالة مؤتمر الأديان ١٩٣٦
- ١٠٧ — Bridges. Theories of temperament Psy. REV. 1923
- ١٠٨ — دروس ٣٩ ص ٣٠
- ١٠٩ — American army Tests. Form a. Test 8
- ١١٠ — مقياس الجيش والبوليس المصرى للمؤلف طبع مدرسة البوليس
- ١١١ — مقياس الجيش والبوليس العراقى : طبع السككية الحربية ببغداد
- ١١٢ — سميت بيزنطية لأن رجال الدين فى بيزنطة كانوا منصرفين إلى مناقشة
بعض المسائل غير المجدية — كالبيضة والدجاجة — وعدوهم على
الأبواب يحاصر أسوار المدينة
- ١١٣ — دروس ٣٨ — ص ٨

فهرس الكتاب

صفحة	
٤	المقدمة
٥	(الباب الأول) مقدمة في علم النفس ، موضوعه ، تعريفه .
٦	الإنسان والحيوان
٦	الشعور ومظاهره الثلاثة : الإدراك ، والوجدان ، والنزوع .
٨	الاستعدادات الإنسانية
١٠	(الباب الثاني) الغرائز : سلوك الإنسان والحيوان .
١٣	أمثلة الغرائز
١٦	تعريف الغريزة .
١٧	مميزات الغرائز
١٨	آثار الغرائز في سلوك الفرد والجماعة .
٢٠	تعديل الغرائز
٢٢	استخدامها في التربية والتعليم .
٢٧	(الباب الثالث) الانفعالات : وصفها ، صلتها بالغرائز .
٣٠	الانفعالات الأولية والثانوية .
٣١	الانفعالات المعقدة أو المركبة .
٣٢	(الباب الرابع) العاطفة الأولية .
٣٤	تطور العاطفة الأولية إلى عاطفة كاملة
٣٥	العاطفة الكاملة أو النموذجية .

صحيحة

- ٣٦ مركز العاطفة
- ٣٦ عاطفة الحب
- ٣٩ عاطفة الكراهية
- ٤١ عاطفة اعتبار الذات
- ٤٣ عاطفة الدين
- ٤٧ (الباب الخامس) تطور السلوك الإنساني
- ٤٧ المستويات الأربعة للسلوك :
- ٤٧ مستوى الغرائز
- ٤٨ المستوى المادى
- ٤٨ المستوى المعنوى
- ٤٩ مستوى الواجب والكرامة
- ٥ (الباب السادس) المزاج : تعريفه .
- ٥١ الأمزجة عند القدماء .
- ٥٣ أخطاء القدماء .
- ٥٥ آراء المحدثين : التقسيم على أساس النشاط الحيوى .
- ٥٦ أساس النشاط والناحية الوجدانية .
- ٥٧ " الغرائز : الأمزجة الأصلية : أمزجة التعويض .
- ٥٩ أثر المزاج
- ٦٠ (الباب السابع) الشخصية .

- ٦٠ تعريف الشخصية
- ٦٥ عوامل الشخصية ، الناحية العقلية ، العلم والثقافة .
- ٦٦ مقياس الثقافة العامة .
- ٦٩ الوجدان
- ٧١ عامل المزاج
- ٧٢ عوامل الخلق والبدن
- ٧٣ المهنة
- ٧٥ عامل البيئة .
- ٧٥ أنواع الشخصيات : الرغبات الطبيعية الأربع .
- ٧٦ الشخصية المنبسطة .
- ٧٦ الشخصية المنقبضة .
- ٧٩ المقاييس العملية .
- ٨٣ (الباب الثامن) الزعامة .
- ٨٦ الزعامة ظاهرة طبيعية إنسانية .
- ٨٨ الظروف المهيئة لظهور الزعماء .
- ٩٥ قبول الزعامة
- ٩٩ صفات الزعيم .
- ١٠٠ الزعيم الديني .
- ١٠١ الزعيم السياسي .
- ١١٧ مراجع وتعليقات .
-

للمؤلف

- (١) علم النفس النظرى والتعليمى : محاضرات للمؤلف .
جمعها الأستاذ رضا حسن
- (٢) فى علم النفس — جزء أول — مع الأستاذين حامد عبد القادر وعطية الابراشى .
- (٣) الطرق العملية لدراسة الحياة العقلية : مع السيدة نظلة الحكيم .
- (٤) ذاكرة الألوان والأشكال بالانكليزية (نفذت) .
- (٥) نظرية جديدة فى علم النفس ، بالإنجليزية .
- (٦) مبادئ التربية — مع آخرين . طبعة وزارة المعارف العمومية .
- (٧) الطرق الحديثة لتدريس الحساب ، جزء أول فى الجمع والطرح .
- (٨) الحساب الحديث (للتلميذ) مقرر السنة الأولى الابتدائية فى كراستين .
- (٩) علم النفس الاجتماعى من الإسلام والعلم الحديث .

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

تقدم أحدث المؤلفات لعام ١٩٤٥

الشمس
ملي

مكتبة الجيل :

- | | | |
|----|----------------------------|----------------------------|
| ٥٠ | الدكتور علي مصطفى مشرفة بك | ١ — نحن والعلم . . . |
| ٦٠ | الدكتور أحمد عزت راجح . | ٢ — مشاكل الشباب النفسية . |
| ٥٠ | الدكتور مصطفى عبد العزيز . | ٣ — وحى العلم . . . |

لجنة الجيل الجديد :

- | | | |
|-----|--|-------------------------------|
| ٥٠ | الأستاذ محمد حمودة . . . | ١ — جان راسين . . . |
| ١٥٠ | للأستاذين علي إبراهيم الأقطش .
 ومصطفى كامل فوده . | ٢ — اللحن في مصر . . . |
| ١٢٠ | للأستاذ حبيب توفيق . . . | ٣ — في ذنبا العدم وقصص أخرى |
| ١٥٠ | و محمود الشيطى . . . | ٤ — حياتى لأنطون تشيكوت . . . |

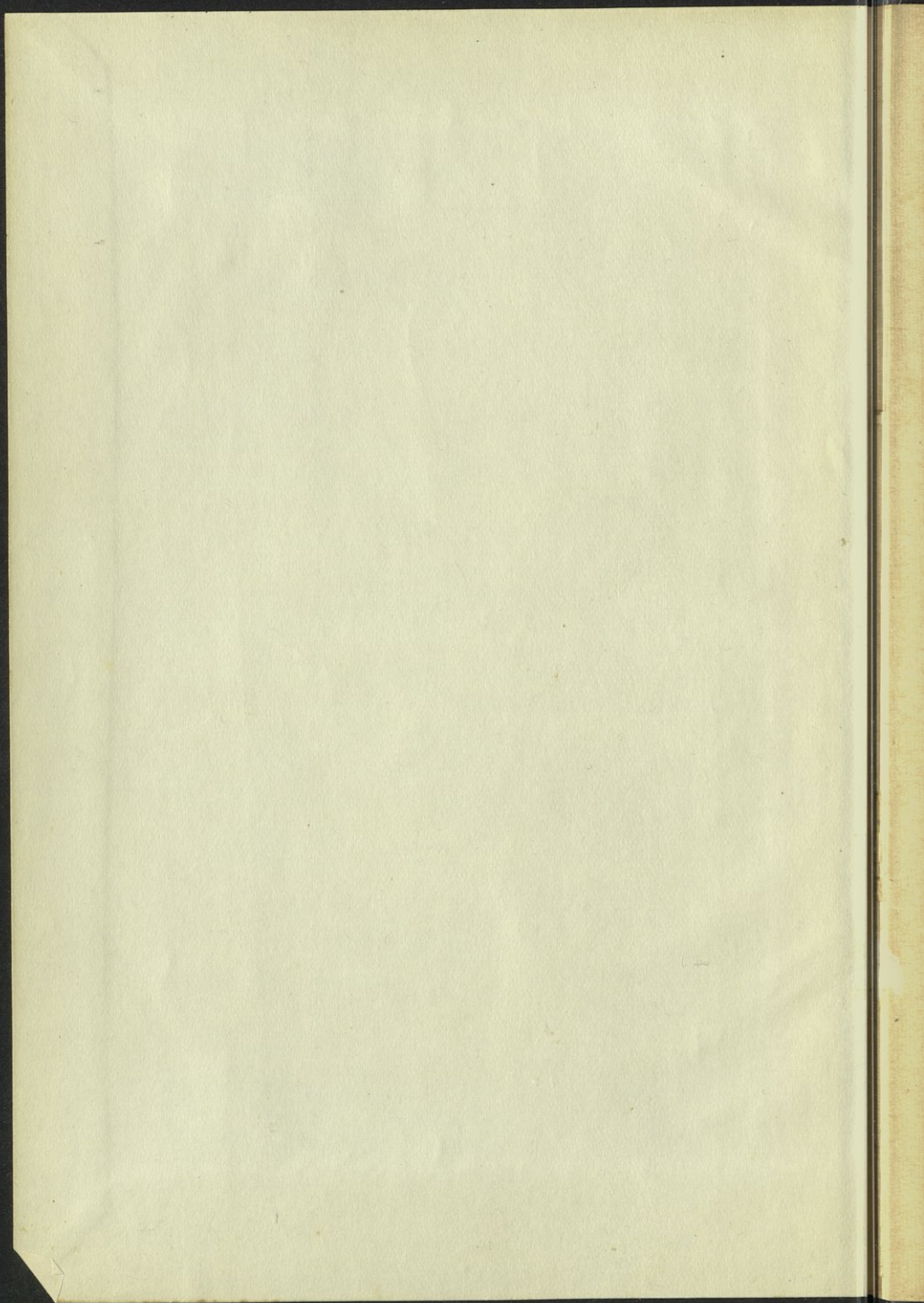
كتب متنوعة :

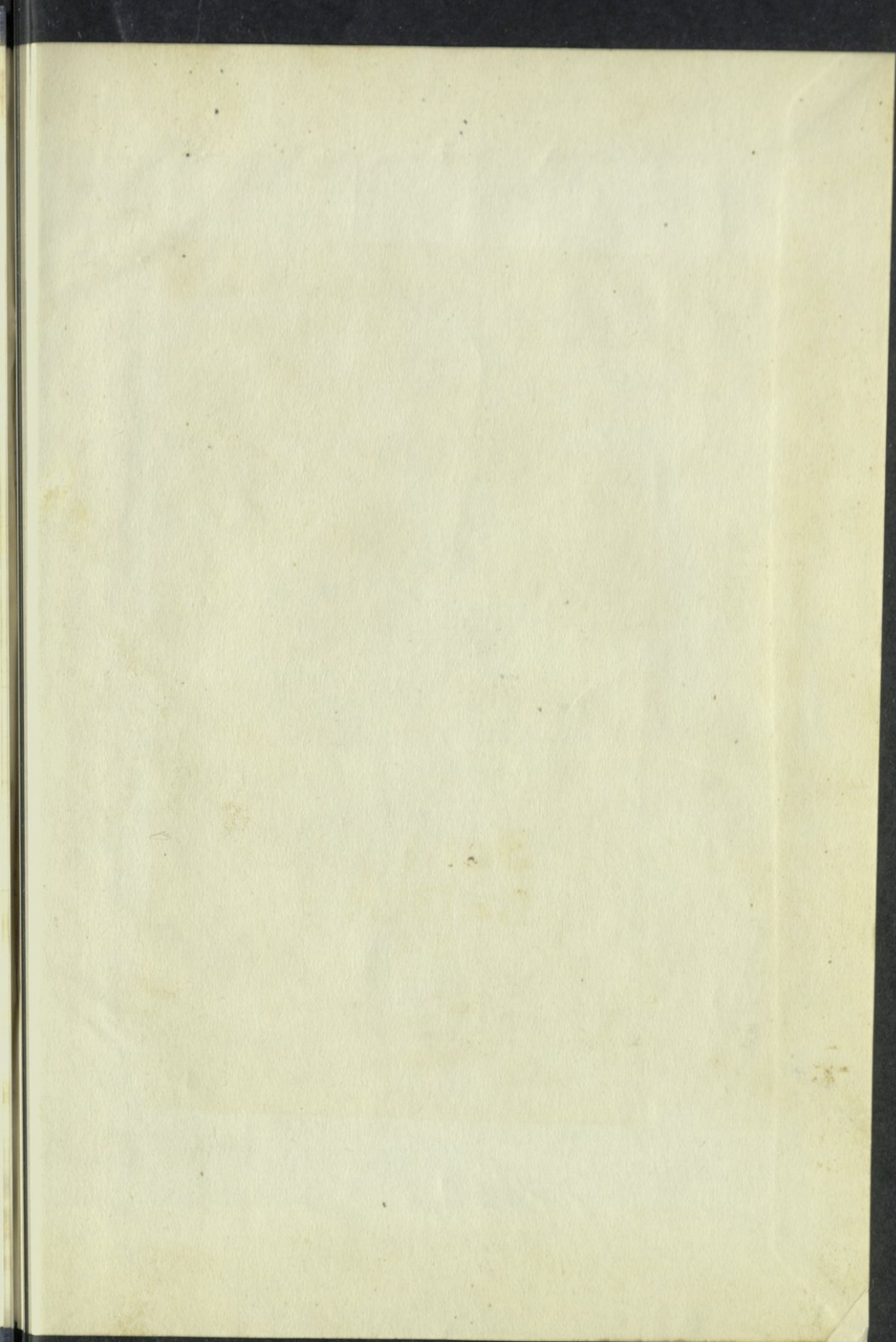
- | | | |
|-----|------------------------------------|------------------------------|
| ٥٠ | الدكتور عبد الدايم أبو العطا . . . | ١ — حاضر يا أفندم . . . |
| ١٥٠ | للأستاذ شوقي محمد يوسف . . . | ٢ — التسلية بالألعاب السحرية |
| ٢٥٠ | د فرج جبران . . . | ٣ — سيف وقلب . . . |
| ٢٥٠ | د محمود شلبى . . . | ٤ — سر المرأة . . . |
| ٢٥٠ | د مصطفى كمال فايد . . . | ٥ — الثورات الثلاث . . . |

وتطلب جميعها من ملتزمها

أحمد محمد إبراهيم صاحب مكتبة نهضة مصر بالفجالة تليفون ٥٠٨٢٧

ومن المسكنات الشهيرة بمصر والأقطار العربية





301.1:Sa131A:c.2

سعيد، محمد مظهر

علم النفس الاجتماعي من الاسلام والع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01009761

American University of Beirut



301.1

Sa131A

c.2

General Library

301.1
Sal3iA
c.2